المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

التورية ومستواها الدلالي في التفكير البلاغي

Guidance is one of the interstitial terms found in Puns and their semantic level in rhetorical thinking

بقلم الدكتورة

صفاء علي عبد الغني أحمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في كلية البنات الإسلامية بأسيوط ـ جامعة الأزهر ـ جمهورية مصر العربية

العدد الثالث (إصدار ديسمبر ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

التورية ومستواها الدلالي في التفكير البلاغي

صفاء علي عبد الغني أحمد

قسم البلاغة والنقد في كلية البنات الإسلامية بأسيوط ـ جامعة الأزهر ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني : safaa2573@azhar.edu.eg

الملخص

نظرًا لتعدد المستويات الدلالية في علم الدلالة ، والتورية البلاغية تمر ببعضها حتى تصل إلى مقاصدها المنشودة من المتكلم ،فهي معنية بهذا الجانب لتغييرها مسار المعنى الظاهري للمفردة(البعد المعجمي)، وعنايتها بالبعد المضمر(البعد السياقي)؛ لذا وقع اختياري على موضوع الدراسة ،الذي بعنوان :(التورية ومستواها الدلالي في التفكير البلاغي).

لإلقاء الضوء على هذا البعد ومعرفة مستواه، من حيث كانت التورية تعنى بالمشترك اللفظي (الدلالة المعجمية) ثم تتدرج في الدلالة مرورًا بالدلالة النحوية والصرفية والصوتية وتحولها إلى (الدلالة السياقية) ،حتى يتمكن كل من المتكلم والمخاطب الوصول إلى إشعاعاتها الدلالية المطلوبة ، واختيار الموضوع يهدف إلى تحديد نوع العلاقة بين علم البلاغة وعلم الدلالة عبر فن من فنون البلاغة المتعددة (التورية) ؛ لإبراز أهم أشكال هذا التحول الدلالي فيه ،وقد وقع البحث في تمهيد يعقبه ستة مباحث وخاتمة :

- التمهيد وعنوانه : تعريف التورية والدلالة وأنواعها ومستوياتها.
- المبحث الأول : التورية ومستواها الدلالي في الحديث عن الذات (فخرًا ووصفًا)
- المبحث الثاني : التورية ومستواها الدلالي في مقام الخوف أو الحيل .
- المبحث الثالث: التورية ومستواها الدلالي في مقام المدح.
- المبحث الرابع : التورية ومستواها الدلالي في مقام الهزل والطرفة.
- المبحث الخامس : التورية ومستواها الدلالي في مقام الذم والهجاء.
- المبحث السادس: التورية ومستواها الدلالي في مقام العذاب
- الخاتمة ثم فهرس المصادر.

الكلمات المفتاحية: التورية ، المستوى الدلالي ، التفكير البلاغي.

Guidance is one of the interstitial terms found in Puns and their semantic level in rhetorical thinking

Safa Ali Abdel Ghani Ahmed
Department of Rhetoric and Criticism, Islamic Girls College in Assiut, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt
Email: safaa2573@azhar.edu.eg

Abstract

Due to the multiplicity of semantic levels in semantics, and the rhetorical pun passes through some of them until it reaches its desired goals from the speaker, it is concerned with this aspect because it changes the course of the apparent meaning of the word (the lexical dimension), and its attention to the implicit dimension (the contextual dimension); Therefore, I chose the topic of the study, which is entitled: (Puns and their semantic level in rhetorical thinking)

To shed light on this dimension and know its level, since the pun was concerned with the verbal commonality (lexical connotation), then it graduated in connotation, passing through the grammatical, morphological, and phonetic connotation and turning it into (contextual connotation), so that both the speaker and the addressee can reach its required semantic radiances, and the choice of the topic aims To determine the type of relationship between rhetoric and semantics through one of the many arts of rhetoric (puns); To highlight the most important forms of this semantic transformation in it, the research consisted of an introduction followed by six sections and a conclusion:

-The introduction and its title: Definition of puns and connotations, their types and levels.

-The first topic: puns and their semantic level in talking about the self (pride and description)

The second topic: puns and their semantic level in the context of fear or tricks.

The third topic: puns and their semantic level in the context of praise.

-The fourth topic: puns and their semantic level in the context of humor and jest.

The fifth topic: puns and their semantic level in the context of slander and satire.

-Sixth topic: Punishment and its semantic level in the place of torment

-Conclusion and index of sources.

Keywords: puns, semantic level, rhetorical thinking.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمدًا يليق بكمال وجهه وعظيم سلطانه ،والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأكرم. وبعد،،،،،،،،،

إن المفردات لا تحمل في ذاتها دلالة مطلقة ؛وإنما تتحقق دلالتها انطلاقًا من السياق ، تتعاقب فيه الدلالة أو المعاني على الكلمات وفقًا للمقاصد ، ولما كانت الكلمة في كل اللغات مادة تتحكم فيها الدلالة، بحثت هذا الجانب للوقوف على أكثر العوامل تأثيرًا فيها ؛ والبلاغة عامة تلتقي في جل جوانبها بالدلالة التقاء وجود ؛ فلا ينفصل علم المعاني عن الدلالة النحوية، ولا ينفصل علم البيان عن الدلالة التضمنية أو اللزومية ، كما لا ينفصل علم البديع عن الدلالة الصوتية والمعجمية والسياقية ، ويعد عامل الحاجة أهم العوامل التي تدفع إلى استحداث معنى جديد، أو تضمين اللفظ معنى ذهنيًا يؤدي مهامًا بلاغية ، والحاجة للتورية أسبابها متعددة ، ولما كانت مستويات التحول الدلالي ثلاثة (توسيع الدلالة، تضييق الدلالة، انتقال الدلالة) والتورية البلاغية خاصة تعبر حتما إحدى هذه الدلالات ؛لأنها تبعد عن المعاني المباشرة وتترك المتلقي يذهب إلى تفسيرات مختلفة باختلاف قدرته على الكشف والتذوق ،وتفكيك عناصر المعنى ؛ ونظرًا لارتباط التورية بالبعد الدلالي كانت هذه الدراسة لتحديد مقدار الارتباط بينهما ،وتحديد مسار الدلالة المعجمية فيها بشكل خاص، والذي تتدرج فيه تدرجًا تصاعديًا ؛ من حيث كانت تبدأ فيه من اتساع الدلالة المعجمية ثم تعرج منه إلى الدلالة النحوية والصرفية ،وقبلهما تعنى بالدلالة الصوتية للحرف، إلى أن تصل إلى الدلالة السياقية المعنية من الكلام. ومن هنا واتت الفكرة ثم كانت الدراسة ، اعتمادًا على السياقات المتعددة للتورية، فكانت بعنوان:(**التورية ومستواها الدلالي في التفكير البلاغي**).

واقتضت الدراسة المنهج الوصفي والتحليلي البلاغي والدلالي ،حيث وقعت في تمهيد يعقبه ستة مباحث وخاتمة :

- التمهيد وعنوانه : تعريف التورية والدلالة وأنواعها ومستوياتها.
- المبحث الأول : التورية ومستواها الدلالي في الحديث عن الذات (فخرًا ووصفًا)
- المبحث الثاني : التورية ومستواها الدلالي في مقام الخوف أو الحيل .
- المبحث الثالث: التورية ومستواها الدلالي في مقام المدح.
- المبحث الرابع : التورية ومستواها الدلالي في مقام الهزل والطرفة.
- المبحث الخامس : التورية ومستواها الدلالي في مقام الذم والهجاء.
- المبحث السادس: التورية ومستواها الدلالي في مقام العذاب
- الخاتمة لرصد أهم النتائج ، ثم فهرس المصادر.

التمهيد: تعريف التورية والدلالة وأنواعها ومستوياتها

إن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة وسحرها ينفث في القلوب ، ولا يحسن بلاغيًا استخدام التورية إلا إذا دعا داع يقتضيه حال المتلقي، وهذا الداعي مما يقصد لدى أذكياء البلغاء كإخفاء المراد عن العامة، وإشعار الخاصة من طرف خفي ، وكالتعبير عن المقصود بكلام يتأتى معه الإنكار عند الحاجة، وكاختبار ذكاء المتلقي والتأثير فيه بما يعجبه من أداء فني.

والتورية في اللغة: الإخفاء، "من ورى الشيء"(١)، أما اصطلاحًا:"أن يتكلم المتكلم بلفظ مشترك بين معنيين قريب وبعيد ،ويريد المعنى البعيد، ويوهم السامع أنه أراد المعنى القريب" (٢).وتسمى الإيهام والمغالطة المعنوية والأحاجي والألغاز(٣).وهي أدق أبواب البلاغة وألطفها، كما أنها تعين على تعاطي وتأويل الكلام. وليس كل لفظ مشترك بين معنيين تتصور فيه التورية ،كاللغات التي تدور على الألسنة ،وإنما ٤تتصور حيث يكون المعنيان ظاهرين ،إلا أن أحدهما أسبق إلى الفهم من الآخر. والدلالة في اللغة مشتقة من الفعل (دلل) ، يقول ابن فارس : "الدال واللام أصلان : أحدهما إبانة الشيء بأمارة نتعلمها ، والآخر اضطراب في الشيء... "(٥). والمعنى المحوري الذي تدور حوله مادة دلل هو الإرشاد والإبانة.

---

١) المعجم الوسيط مادة (ورى).

٢) روضة الفصاحة: زين الدين الرازي، تح/ د أحمد النادي شعلة ط أولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢مدار الطباعة الحمدية ،صـ١١٤.

٣) الطراز لأسرار البلاغة : يحي بن حمزة العلوي ، المكتبة العصرية بيروت ط أولى ، ١٤٢٣هـ ، ج٣/٦٣.

٤) خزانة الأدب وغاية الأرب : ابن حجة الحموي ، تح/ عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت ط أخيرة،٢٠٠٤م مج ٢/٢٤٩

٥) مقاييس اللغة مادة (دل).

والدلالة في الاصطلاح : "كون الشيء بحالة يلزم من العلم به بشيء آخر ،والأول هو الدال، والثاني هو المدلول".(١)، أما عن المحدثين : فقد عرف أحدهم علم الدلالة بأنه " العلم الذي يدرس المعنى ، أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى..."(٢)

أنواع الدلالات : يوجد أنواع متعددة عند أهل اللغة ،وللكلمة أبعاد مختلفة من الناحية الدلالية في الجملة الواحدة؛ وهذا ما استدعى تقسيمها عند المختصين إلى خمسة أنواع :

١- الدلالة المعجمية :"الدلالة المتعلقة بتعدد المعاني للمفردة الواحدة ،وذلك بناء على سياق الكلام اللغوي التي توجد فيه ،وهذه الدلالة أهم أسباب وجود المعاني المتعددة في المعجم العربي"(٣). فعلى سبيل المثال كلمة (أخذ) في الجمل الآتية :أخذ الطالب كتابه: بمعنى استلمه، وأخذ الطفل في البكاء: بمعنى بدأه ، وأخذ الوالد ابنه على إهماله: بمعنى عاقبه، وأخذ المظلوم حقه : بمعنى استرده. إلى غير ذلك مما هو مبثوث في المعاجم العربية على كثرتها وتعددها، مما يؤكد استعمال المفردة الواحدة بأكثر من معنى ، وكل يفهم من مجمل السياق الواردة فيه.

٢- الدلالة الصوتية: الدلالة التي تعتمد على القيمة الصوتية للحرف الواحد وما يعبر عنه، أو ما يعرف بالعناصر الصوتية الثانوية التي تصاحب الكلمة المفردة وقد أشار إليها المتقدمون أمثال ابن جني ،وأحمد بن فارس، والثعالبي وغيرهم كثر، واستشهدوا بالعديد من الأمثلة عليها في مؤلفاتهم ؛فعلى سبيل المثال لا الحصر : الفعلين(قضم ،خضم) فالفعل الأول يقصد به أكل الشيء اليابس ،أما الثاني فهو أكل الشيء الرطب، وقد أدى هذا الاختلاف في وجود حرفي (القاف ،الخاء) ؛لما يراه العرب في حرف الخاء أنه رخو، وأن حرف القاف

---

١) كتاب التعريفات : علي بن محمد الجرجاني : ط الحلبي ١٩٣٨م ، صـ ٩٣.

٢) علم الدلالة : د/ أحمد مختار عمر ، صـ ١١، دار عالم الكتب ،ط خامسة ١٩٩٨م .

٣) علم الدلالة ،صـ٢٤٣.

حرف صلب. ومثل (صد ،سد) فالصاد أقوى من السين صوتيًا فتستعمل (صدَّ) لما يصعب إيقافه وإغلاقه ،أما (سدَّ) فتستعمل فيما يسهل إيقافه وإغلاقه، وهذا ما تؤكده مؤلفاتهم من أن العرب كانوا يأخذون مسموع الأصوات إلى مسموع الأحداث، كما يؤكدون أن هذا النوع من الدلالات اللغوية تشتهر في الحروف التي تعبر عن الأصوات الطبيعية ؛ مثل الخرير والحفيف والعواء والصرير والهدير والقلقلة وغيرها . والسيوطي صرح بذلك عندما علق على الألفاظ التي أوردها في مزهره في باب مناسبة الألفاظ للمعاني قائلا:"فأتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف فيها والأبين والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملًا أو صوتًا ، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملًا وأعظم حسًا".(١)

٣- الدلالة السياقية: كما ذكر في كتاب المفردات (٢) أن سياق الكلام أكثر قدرة على توضيح المعنى من إيراد اللفظ وحده منفردًا؛ فعلى سبيل المثال كلمة (قريب) لها معان عدة في اللغة لكنها في قولنا : فلان قريب إلى قلبي ، بمعنى المحبة. أو يقال فلان قريب الدموع ، كناية عن كونه عاطفيًا سريع التأثر بالأحداث.

٤- الدلالة النحوية: الدلالة التي تعنى بالنحو وموقع الكلمة المفردة الواحدة في الجملة ومعناها داخلها ،فيكون التركيب الذي وجدت فيه هو من أعطاها هذا المعنى ؛ أو"هي الدلالة المحصلة من استخدام الألفاظ الكلامية في الجملة على المستوى التحليلي أو التركيبي"(٣) كما أشار عبد القاهر في كتابه الدلائل: "أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفرادًا ومجردة من معاني النحو"(٤)، ويفهم

---

١) المزهر في علوم اللغة: السيوطي ، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار التراث القاهرة ،ط ثالثة ج١/٥٣٠.

٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، ص١٧١.

٣) علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية: د/فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب، ٢٠٠٥م، ص٤٣.

٤) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني، تح/ محمود شاكر، مطبعة المدني، ط ثالثة ،١٩٩٢م، ص ٤١٠.

من جملته أن اللفظة لا يكفي أن ترد بمفردها لتعطي المعنى وإنما وجودها داخل تركيب هو ما يكسبها معناها، فمثلًا : ضرب موسى عيسى، وضرب عيسى موسى، فالموقع أو الرتبة أصبح محتوى دلاليًا مستقلا بذاته في إيصال معنى للمتلقي لا يمكن إدراكه إلا من خلال العلم بالقواعد النحوية وتوظيفها الدلالي.

٥-الدلالة الصرفية: ويقصد بها تلك الدلالة التي تبحث في الأوزان والصيغ المجردة ومعانيها المختلفة من الناحية البنائية، وقد تجلت هذه الدلالة في جل مواضع القرآن الكريم ؛ كاستعمال (باسط) بدلا من يبسط في قصة أهل الكهف، واستعمال الفعل (يقبضن) في مقابلة (صافات) في سورة الملك و(اسطاعوا)و(استطاعوا) إلى غير ذلك، وأيضا تباين الاستعمال البنائي بين كلمتي (ظهر) و(تظاهر) ففي الأول تفيد مجرد الفعل، أما في الثاني فتفيد التفاعل الدال على التظاهر ، ومثل (علم) و(تعلَّم) ففي الثاني يفيد التدرج، ويلحظ الصرفيون في المعاني أن معنى الحركة والاضطراب الذي في وزن (فعلان) مستنبط من بناء الكلمة ومعناها اللغوي ، كالهيجان والغليان والفوران مما هو دال على الحركة والتقلب.

وفي الحقيقة تلك الدلالات كلها منثورة في المعاجم العربية الأصيلة للفروق السياقية للكلمة المفردة واستعمالاتها التعبيرية ، مثل القاموس المحيط، ولسان العرب ، وتاج العروس وغيرها. بما يثبت أن علم الدلالة لا ينفصل عن علوم اللغة بحال من الأحوال ، بل هو العلم الذي تبنى عليه وتقوم به، ومما يرد زعم الزاعمين باختصاصه بهم دون غيرهم ؛ فالحاجة إليه ضرورة ، والمسعى إليه ملح. فجل تلك الدلالات لا غنى عنها للبليغ بأي وجه ؛لاعتماده عليها في إيصال المعنى المراد، واستغلالها في استجلاء بواطن الأسلوب كل حسب ثقافته ومؤهلاته اللغوية والعقلية.

وأهم مستويات التحول الدلالي ثلاثة :

١-توسيع الدلالة، ويعد هذا النوع من أنشط المستويات ؛لأنه تستثمر فيه ألفاظ اللغة بجعلها قابلة لاحتواء معاني أكثر من ذي قبل، والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاورًا له ،أو كان منه بسبب ،كما في المجاز ،والمشاكلة.

٢-تضييق الدلالة: إذ تعمل على تضييق المعنى القديم الواسع وجعله متعلقًا بأجزاء قليلة منه ، مثل كلمة (الحج) فأصل الحج : القصد، ثم خصصت الدلالة وصارت الكلمة تطلق على ركن مخصوص من أركان الإسلام المعلومة.

-انتقال الدلالة: "انتقال الدلالة من مجال إلى آخر؛ لوجود ملمح مشترك يسمح بهذا"([1])، وأمثلة هذا النوع منتشرة في اللغة العربية ،مثل فسقت الرطبة : خرجت من قشرتها ، انتقلت إلى معنى الخروج عن الطريق المستقيم، وغير ذلك كثير.

وبعد هذه التوطئة الموجزة ننتقل لأول مباحث الدراسة :

---

١) علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق :فايز الداية ،دار الفكر العربي دمشق، ط ثانية، ١٩٩٦م، ٢٤٢.

المبحث الأول :التورية ومستواها الدلالي في الحديث عن الذات(فخراً ووصفاً)

*** قول بدر الدين الحمامي الذي كان أحد رواد هذا الفن(١):

جودا لنسجع بالمديح على علاكم سرمدا *** فالطير أحسن ما تغرد عندما يقع **الندى**

فالشاعر من أرباب المهن ،وهي طبقة تلي الفقراء في بؤسها حسب تصنيف المقريزي لطبقات العصر المملوكي(٢)،وهو هنا يخاطب الممدوح ويستحثه على العطاء المادي والجود مخاطبًا فضله ومتمثلًا التورية هدفًا ووسيلة، ولأنه يحمل بعدًا نفسيًا داخليًا ؛هو الخوف من عظيم جاه وبطش سلطان ومساءلة ، بدلالة الشطر الأول من البيت (لنسجع بالمديح على علاكم) مما دفعه إلى استعمال التورية ؛ فجاءت كلمة (الندى) والتي من مضامينها: بخار الماء في آخر الليل يتساقط ، والارتفاع والامتداد في حسن ،والجود والسخاء، وتظل هذه المعاني تتوارد على الذهن المتلقي لها ترتيبًا يتوافق مع ظاهر اللفظ حتى يستقر أحدها ويلقى القبول ، فترشح ألفاظ السجع والطير والتغريد المعنى الأول ، إذ الكلمة واقعة في إطار التشبيه الضمني ، كما تؤيد ألفاظ العلا والحسن المعنى الثاني ، حتى يأتي إلى الذهن المعنى الثالث(العطاء) وترشحه كلمة (الجود) وكأني بالمتكلم يقصد منذ البداية اتساع الدلالة حتى يتنقل الذهن بينها جميعًا ، ثم يقع على ما يتناسب مع المعنى المقصود من السياق، بعد تدبر وروية وحينئذ تضيق عنده الدلالة بعد الاتساع والانتقال ؛ فيصل إلى المطلوب من كلمة (الندى) حتى يقر في نفسه أنه الكرم والجود ، و بهذه التورية يرد المتكلم عجز الكلام على أوله توكيدًا وتقريرًا إلى ظهور فقره ، وإحساسه العميق في طلب دفعه، والدلالة المعجمية هنا لها بعد نفسي لدى الشاعر تعكس مقدار الأثر المنتظر من هذه العطايا وكأنها تنزل على فقره واحتياجه نزول الندى الرطيب على النبات اليابس ،فتدب فيه الحياة وينمو ويعلو ويحلو منظره ؛مما يدفع الطيور للتغني بهذا البعد

---

١) خزانة الأدب : مج٢/٢١٠.

٢)إغاثة الأمة بكشف الغمة : المقريزي ، تح/ د كرم حلمي فرحات ط أولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الهرم ، صـ١٤٧.

الجمالي كناية عن السعادة والفرح ،وتبدل الحال بعد حال ،وهو بهذه الصورة يعكس هزاله وضعفه وبؤسه حتى يحصل على مبتغاه من العطاء المنتظر فيتبدل حاله كما تبدلت الطيور. وهكذا تدرج الشاعر في المستوى الدلالي من المعجمي إلى السياقي، معرجًا على الدلالة الصوتية ؛ فصوت النون من الحروف المجهورة ومن الذلق مرقق ، وهو يدل على الظهور ، وصوت الدال له طبيعة خاصة حيث يدل على الأحاسيس اللمسية، بما يتناسب مع صورة المعنى والأثر المتحقق.

ثم كانت الدلالة النحوية حين جعل الندى فاعلًا مؤثرًا للحدث وموجدًا له ، فهو المحور القائم بالعمل ومبعث انطلاقه، وبناء الجملة في سياق الشرط يربط ويرتب تغريد الطيور على وقوع الندى أولًا ؛ لبيان الترتيب الوجودي في شكل حواري منطقي مبني على التسلسل الفكري المنظم، أما لو حدث تغيير في هذا الترتيب فسوف يتغير المعنى ،إذ لو قيل : الندى عندما يقع يجعل الطير مغردًا ، لظهر مدلول عناية المتكلم بالندى وليست عنايته بالطير كما بدا في النص الأصلي ،وهو يعنى بحاله أولًا كمقدمة لطلب العطاء واستعطاف المخاطب بالنظر إلى ضعفه واحتياجه. ثم كانت الدلالة الصرفية باختيار المصدر الدال على المبالغة في جعل الندى أصلًا لوجود وتحقق الكرم ، فهو الأصل والجذر الذي تنبعث منه الفروع الأخرى للجود، وفيه دلالة ضمنية من المتكلم على ضرورة اتساع الندى من فاعله وثبات مصدره بالنسبة إليه ،لأن التعبير به يأخذ الذهن جميعه من دون انصراف إلى تصور زمن الفعل والفاعل ،فلا يلتفت الذهن لغيره. وهكذا وظف الشاعر هنا الدلالة بأنواعها لتوكيد البعد النفسي الداخلي له ، ولذلك استغل الشاعر التشبيه الضمني في الشطر الثاني ،بطريقة المذهب الكلامي لإقناع المخاطب بالدليل العملي والبرهان المنطقي على صحة دعواه.

*** ومن التورية في الحديث عن الذات قول المتنبي من بحر الطويل:

لك الحمد في **الدر** الذي لي لفظه *** فإنك معطيه وإني **ناظم**(١)

١) ديوان المتنبي : تح/ د عبد الوهاب عزام ط أولى ، لجنة التأليف والنشر ،مج١/٤١٢.

وإني لتعدو بي عطاياك في الوغى *** فلا أنا مذموم ولا أنت نادم

إن المتنبي يستشعر في نفسه مقدار موهبته الشعرية ،ويستيقن وجودها بل ويستعلي بها، لكنه يدرك أنها تحتاج لمحفزات تستثيرها الأحداث والمواقف ، فكانت هذه الأبيات إثر خروج سيف الدولة بجيشه لمحاربة الرومان، ويقع في مظنون القارئ لأول وهلة أن المتنبي يحمد الله على هذه المنحة الشعرية ؛ لكن بمطالعة مناسبة القصيدة نكتشف بأنها خطاب(لسيف الدولة الحمداني) ، مبالغة في مدح انتصاراته الحربية ،وأنه بشجاعته تلك كان سببًا في إبداعه الشعري ،الذي لهج به لسانه، بدلالة ما أقر به في البيت الثاني صراحة ؛ ولعل المتنبي صاغ أبياته بذكاء الفني البارع ؛ لتقييد الحمد بشبه الجملة(في الدر) تنبيهًا إلى هذا القيد، وقد شاع في تحليل هذا البيت أن يجعلوه من قبيل التورية في الكلمتين (الدر ، ناظم) لكن يقع في نفسي أن الأولى كانت على سبيل الاستعارة ،وهو الأقرب اصطلاحًا؛ لعلاقة المشابهة ،ثم كانت التورية في كلمة (ناظم) من قافية الشطر الثاني للبيت قرينة للاستعارة ؛من حيث كان الدُّر: بضم الدال جمع درة ودرر ودرات : اللؤلؤ والمكانة والقيمة والشيء النفيس، والدَّر بفتح الدال در السراج أضاءه ،ودر اللبن : كثر، والدِّرة بالكسر أيضًا كثرة اللبن وسيلانه والجمع دِرر(١)، وليس من معناه اللغوي داخل المعاجم معنى الشعر، أو القصائد المقولة، أما الناظم : فاسم فاعل من نَظَمَ أي ألفَّ وضم شيئًا إلى شيء ،ونظمت اللؤلؤ :ألفته ووضعته في عقد، ورتبته ،ونسقته، فتكون بمعنى الحائك والصانع، و حتى هذه اللحظة يتسع مدلولها المعجمي ليقف معها العقل ويتدبر في مناسبتها موضعها، فيعيش معها زمنًا نفسيًا ويرضى بهما خبريًا، وخاصة بعد ذكر القرينة للمعنى المراد لكلمة (الدر) في قوله (فإنك معطيه) فيقع في النفس أنه شيء مادي يتداول، وينتقل من يد إلى يد ، كما وقعت التورية في كلمة(ناظم) ؛ لتقنع المتلقي بأنه در ينظم بشكل دقيق ، ثم لا يلبث العقل أن يدرك بعد هذا الزمن النفسي الداخلي أن كلمة (الدر) يراد به شعر المتنبي، على سبيل الاستعارة التصريحية

١) ينظر القاموس المحيط مادة (درر).

لعلاقة المشابهة ؛حيث يثمن شعره في سوق الأدب بالدر في سوق الجواهر، وعندما ندرك أيضًا أن المتنبي ليس حائكًا أو صائغًا للمجوهرات ؛ وإنما هو شاعر يصوغ من شعره قصائد تلقى من الأسماع إعجابًا وتعظيمًا واستجادة واعترافًا بالإبداع، إذ بدا بهذه الاستعارة واضحًا تمكنه من أدواته الشعرية وتطلعاته الأدبية، وجاءت الاستعارة مجرورة بحرف الجر(في الدر) ولم يقل:(على الدر) إشارة للاتصال الروحي والنفسي بالحال والزمن والظرفية الكائنة والمتعلقة بزمن الصياغة، والتي تحيط بالشاعر إحاطة المكان والجدران بالأجسام. وكأني به في هذه الحال منفصل عن العوالم الخارجية تمامًا انفصال الظرف عن المظروف. وربما تشير إلى مكنون المتنبي الذي يؤكد تبدل أحواله حسبما يتبدى له فكره، فهو صائغ للدر في وقت القيد المذكور.

أما التورية: فقد صاغها المتنبي خبرًا نحويًا حتى تتعلق النفس به وتصبو إليه منتظرة الوقوف عليه، ومتى تطلعت النفس لشيء كان قبوله أسرع، والاقتناع به أولى. ولا شك أن الترتيب المتحقق يؤدي معنى معينًا في نفس القائل، أما لو حدث تغيير في هذا الترتيب فسوف يترتب عليه معنى آخر؛ فإذا قيل: والناظم أنا؛ لبدا أنه في مقام الفخر بنفسه وقصر النظم عليها ،وهذا يتعارض مع ما يلزم عند مخاطبة الملوك من تقديم تعظيمهم وإظهار إجلالهم، ثم يبدو حينها وكأنه يعقد مقارنة ذهنية بين الملهم للشعر(سيف الدولة الحمداني)،والصائغ له(المتنبي) يظهر فيها استعلاءه عن المقارن .هذا وقد عني الشاعر أيضًا في مضمار دلالته بالدلالة الصرفية للكلمة؛ والتي تمثلت في ميزان صرفي رائع ومعبر(اسم الفاعل في كلمة ناظم) دلالة على ثبات مستوى شعره في العلو ودوام براعته فيه، في إشارة صريحة إلى دوام إبداعه وتفوقه، والتعريض بمن يدعي عليه تذبذب مستواه الشعري ما بين القوة والضعف، بل كانت صوتية الكلمة أيضًا مقصودة في صوت النون الدال على الظهور في كثير من الألفاظ ،وصوت الألف الدال على البعد المكاني والزمني للمد بالصوت فيه ،فالألف حرف مد لين يستغرق نطقه من الزمن ما يدل على المعنى المقصود من المبالغة من

وقوع النظم ، ثم صوت الظاء الدال على الفخامة والظهور مع شيء من الشدة والقساوة ، ثم صوت الميم الحرف الشفوي ويتميز بأنه جهري يجهر فيه الشعر بموهبته ، فيه غنة هنا حيث خرج الصوت مركبًا في إشارة من الشاعر إلى مضاعفة موهبته ، كما يتميز الميم بذلق اللسان والشفة عند النطق به مما يوحي بذلاقة شعره وجريانه على الألسنة في سهولة ويسر، تنبيهًا على ظهور موهبته وشأنه الشعري.

***ومن التورية قول الشاعر بدر الدين الذهبي في الحديث عن ألم الذات (من بحر الكامل) :

رفقًا بخل ناصح أبليته صدًّا وهجرًا *** وافاك **سائل** دمعه فرددته في الحال **نهرًا**(١)

إن الشاعر حريص على إظهار مشاعر المودة والوصال بينه وبين المخاطب مما دفعه إلى عتابه؛ فكانت التورية مدخلًا نفسيًا وفكريًا يفصح من خلاله عن مكنونات ألمه بأسلوب لطيف ، حتى يسترجع المخاطب إلى معهودهما الإنساني من التواصل، فتخير كلمة(السائل) حتى يتدرج لفكر المخاطب ويتسرب إلى وعيه الشعوري والإنساني ؛فإذا كان أول ما يقع ويثبت في عقله المعنى القريب من سيلان الدموع(المورى به)الذي يوحي بالكثرة والغزارة والجريان والتدفق، فيتأثر بعدها السامع بالمشهد المثار، ويتفاعل وجدانيًا فيستشعر الندم على ما كان ، حتى إذا ما أدرك هذه الدلالة المعجمية انتقل يتفحص السياق الكلي، فيدرك أن من معانيها أيضًا المحاسبة ؛ وكأن الدموع تشكو وتحاسب من تسبب في سيلانها ،فيستثير عاطفة الخوف بعد الندم ، ثم يتدرج العقل في معنى الكلمة حتى يصل بعدها إلى المعنى البعيد (المورى عنه) ويراد به المتسول الفقير المستعطي والمستخبر والمستعلم، فيستقر في وجدانه فيزداد تعاطفه ويرجع عما كان من الصد والهجر، حين يقف على لغة العيون التي تجسدت سائلًا يرجو ويلح في السؤال، إذ الدمع الذي يسيل يتضمن سؤال الوصال، وهكذا كان البعد النفسي للتورية انتقالًا تدرجيًا وتصاعديًا من اتساع الدلالة إلى تحجيمها وتضييقها حتى

١) شعر بدر الدين يوسف الذهبي : جمعه د/ حسين علي محفوظ، ج١/٦٤ .

تصب كل المعاني المعجمية في مصلحة الفكرة ، فكانت الدلالة الصوتية للسين الدالة على الليونة ،وصوت الألف الدال على البعد المكاني أو الزماني لتلك الحركة ،ثم صوت الهمزة الانفجارية وهو صوت يوحي بالبروز والنتوء لإظهار فعالية السيلان في صورة مرئية للعين ، وصوت اللام الزلقي الدال على الالتصاق.

كما لم يغفل الشاعر عن الدلالة الصرفية ببناء الكلمة على اسم الفاعل الدال على التغيير والتطور والتحديث ؛لأنه وصف الفاعل بالسائل ،واسم الفاعل أدوم وأثبت من الفعل ،دلالة إيحائية على المداومة والصدق في الحال مما يناسب مقام العتاب واللوم، بل ويحرص الشاعر أشد الحرص على الدلالة النحوية حين يثبت كلمة التورية فاعلًا للحدث، بل ويجعل له وجودًا مستقلًا عن الفعل الذي سيفعله ،مما يميز الفاعل أنه لا يمكن الاستغناء عنه بأي حال ،وكأن السؤال ضرورة بين المتحابين، ثم لا يكتفي الشاعر بتورية واحدة في البيت حتى يتبعها بالأخرى استرسالًا حواريًا فكريًا طارقًا للعقل والوجدان معًا ،فتأتي كلمة (نهر) في قافية البيت ولها معان عدة : واحد الأنهار الجارية إذ ينصرف الذهن مباشرة نحو هذا المعنى ويقويه كلمة سائل(التورية الأولى)،فهي تورية مرشحة، والدلالة المعجمية هنا تتسع لتشمل معاني القوة من نهر الدم :سال بقوة، وغزر وكثر، وقد تحتمل معنى الرد صراحة وجهرًا كما يقال : رجل نهر أي صاحب نهار يغير فيه ،وكأنها في ردها القاسي كمن يقيم إغارة على الآخرين، وتحتمل معنى المضي والعمل نهارًا، وقد تحولت الدموع المسالة والسائلة إلى نهر عميق ماض في طريقه يندفع متواصلًا من الليل وحتى النهار، فإذا رسخت تلك المعاني كلها في نفس المخاطب ينتقل بعدها من سعة الدلالة إلى ضيقها حين يعقل المعنى البعيد للكلمة لمناسبته السياق ؛ألا وهو صوت زجر الناهر الرافض للود والتقارب والذي يصب في هيئته نهرًا ثائرًا ،وقد حققت التورية هنا بعدها النفسي ليدرك السامع مدى جفاء من يخاطبه الشاعر، وحجم سوء رده وبعده عن المنظور الديني الإسلامي؛ حين يقابل السؤال بالنهر تلويحًا للمتلقي من الدخول في المنهي عنه في قوله

تعالى﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾(١).وحتى يحقق البعد التفاعلي من السياق ،وقد حرص الشاعر على الدلالة الصوتية متمثلة في صوت النون الذي يدل على الظهور في كثير من الألفاظ ،والهاء الذي يدل على الاضطرابات والانفعالات البادية في نغمات المتكلم الصوتية وبما يقود إلى القسوة المصورة في طريقة الرد ، والراء يدل على ظاهرة التحرك وتكرر الفعل وديمومته بما يتناسب أيضًا مع المدلول العام للكلمة وحركتها الصوتية فيه ، ثم كان التنوين بالألف ليدل على البعد الأفقي لصوت هذا الفعل وكيفية تأثيره عليه.

كما تجلت الدلالة النحوية والصرفية في بناء كلمة التورية حالا (نهرًا) أي فرددتَه ناهرًا ، والغرض منه بيان هيئة صاحب الحال وقت حدوث الفعل ودائمًا يأتي الحال بمثابة جواب لجملة استفهامية ،فكأن الحال هنا ذكر بمثابة جواب لسؤال سائل : كيف كان الرد من هذا الخل ؟، لترد الإجابة : رده نهرًا، والحال يدل هنا على إمكانية التبديل والتغيير من هيئة لأخرى، مما يستحث السامع عليه طلبًا للود، وإبعادًا للنفور، وبناء الكلمة على المصدرية الصرفية للتوكيد والمبالغة معًا ، وكأنه قال نهر دمعي نهرًا، زيادة في القدر والمقدار حتى يلتفت السامع ويتعلق بها فينفعل ويتأثر، وصياغة المصدرية هنا أبلغ من اسم الفاعل من هذا الوجه. وهكذا راعى الشاعر أنواع الدلالة المختلفة في كلمة التورية البلاغية، تدرجًا وانتقالًا من عموم الدلالة إلى خصوصها ومن معجميتها اللغوية إلى دلالتها السياقية عبر مراحل زمنية فكرية.

***وقول سراج الدين الوراق شاعر مصري (ت٦٩٥هـ):يصف حاله-من بحر الوافر- حين يقول:

أصون أديم وجهي بين أناس لقاء الموت عندهم الأديب

ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافى به لهم **حبيب**(٢)

---

١) سورة الضحى آية (١٠).

٢) لمع السراج : صلاح الدين الصفدي ، تح/ حسين عبد الهادي .دار الكتب العلمية ،٢٠١٧م، صـ ١٧٦.

يعبر الشاعر في هذا البيت عن عزة نفسه وصون كرامته بين أناس لا يقرون بالأدب صنعة ،ولا يعترفون بالموهبة منحة ، وكأنه يندب حظه من الدنيا ؛لامتلاكه مقومات النجاح الأدبي مع عدم تحققه لأسباب خارجية، مستعملا التورية في كلمة(حبيب) والحبيبان : الذهب والفضة(١)، والحب الود والرغبة ،وميل النفس فيه و مبلغ الجهد في الوداد، هذا المعنى القريب (المورى به) يلتقي بالذهن مباشرة بمجرد سماع أو قراءة الكلمة، إذ هو محب للمخاطبين يطلب ودهم ووصالهم ،كما أنه نفيس نفاسة المعدن (الذهب) الذي يحتاج إلى بحث وتنقيب لاستخراجه وإعداده حتى يصقل في صورته النهائية النفيسة التي يتهافت عليها الناس، ويبدو من السياق العام للكلام مقدار الخوف النفسي من العقوبة المرتقبة عند الغضب من المقول؛ فلجأ الشاعر للتورية هروبًا وفرارًا إلى الأمن والسلم القولي وتنفيسًا عن المكنون في الوقت نفسه؛ فعندما يثبت المعنى الظاهري من الكلمة وهو المحبة والإلف في وجدان المتلقي يتهيأ للنقد والكلام المسوق ؛ إذ تتقبل النفوس ممن تحب عتابًا صريحًا كان أم خفيًا ، وبعد استقرار الدلالة العامة للكلمة تنطلق الهمة لمعرفة المضمون من السياق الكلي فتضيق حدود الكلمة شيئًا فشيئًا انتقالًا من العموم إلى التخصيص بعد الوقوف على كلمة(ورب الشعر) مما يوحي بخصوصية المراد ، إذ يقف العقل عندها متسائلًا ؛ من هو ربُّ الشعر ذاك ؟ ، إذا ليس المراد من كلمة حبيب معناها المعجمي ، وإنما ذكرت هنا كلمة(ربُّ) كلازم للمعنى البعيد المورى عنه (التورية المبينة)لأن هذا اللازم يبينها ويقربها للعقول حتى تصل إلى أن المقصود من كلمة(حبيب) هو حبيب بن أوس الطائي أبو تمام الشاعر المعروف في العصر العباسي ، أحد أمراء البيان نظرًا لبراعته في الشعر ونهجه مسلكه الخاص به بعيدًا عن أسلافه ومعاصريه من الشعراء، فألقت هذه التورية بظلالها النفسية الموحية بإحساس المتكلم(سراج الدين الوراق) بموهبته الشعرية القوية ، وتفرده في عصره بين أقرانه، والمقارنة الذهنية القائمة نفسيًا ووجدانيًا ،في مشابهة أحواله المعيشية والاجتماعية أحوال أبي تمام

١) المعجم الوسيط مادة (حبب).

الذي كان يعمل سقاء في جامع عمرو بن العاص في مصر، ثم ارتقى بشعره إلى شاعر مرموق ذي شأن، إذن المقاربة والمقارنة الذهنية كانت قائمة نصب عين سراج الدين حين تخير الكلمة حتى ينال مبتغاه من التقدير والمكانة، التي نالها أبو تمام في عصره ؛ ولعقد الصلة العقلية المباشرة بين (المورى به والمورى عنه)والنفسية للحال الواقع له والمأمول المستقبلي، فيتنقل الذهن من المعنى المعجمي للمفردة إلى المعنى السياقي في تؤدة وروية وانسيابية لغوية عقلية فكرية، وقد أبدع الشاعر في بناء الطباق البديعي المرشح بالتورية بين كلمتي (بغيض ،وحبيب) لإظهار مقدار المفارقة الإنسانية الشعورية ، في إشارة جلية إلى التباين الوضعي لكل منهما رغم اتفاقهما في الموهبة.

وتابعت الدلالة الصرفية لبنية الكلمة إيحاءاتها ؛ إذ وقعت صفة مشبهة تدل على الثبوت من (حبٌّ) فتدل على أن الوصف ثابت أو كالثابت ، والبناء الصرفي على وزن (فعيل) بمعنى مفعول مما يعني أن هناك فاعلًا قام بعمل في حال معينة ،ولكنه أكثر منه وبالغ في فعله ، فتزيده مدحًا وتعززه وصفًا مقربًا ، أو يجوز أن تكون الكلمة اسم مفعول، أي المحبوب فيدل على أن الوصف قد وقع على صاحبه بحيث "أصبح سجية له أو كالسجية"(١)، وأيضًا توحي بكثرة الراغبين فيه؛ لاشتماله أسباب المحبة ومقوماتها، واستجلابه ما يوجب المحبة.

كما يعنى الشاعر بالدلالة الصوتية فصوت الحاء رخوي مهموس يمكنه الجريان بسهولة تامة دون انقطاع بمجرد البدء في نطقه، في إشارة إلى موهبته الجارفة والمتدفقة ، كما يدل على النعومة والحنين ، وصوت الباء شفوي مجهور تتذبذب معه الأوتار، يدل على الاتساع والارتفاع ، وصوت الياء صوت طويل، مما يوحي بامتداد العاطفة مع امتداد الصوت بها ، كما كانت الدلالة النحوية مقصودة في ذاتها حين جعل كلمة التورية فاعلًا؛ ليقف المتلقي عندها ومعها ردحًا زمنيًا مناسبًا ، حتى يدرك أنها حجر الزاوية ومحط الأنظار الذي تبنى عليه الأحداث

---

١) معاني الأبنية في العربية : د/ فاضل صالح السامرائي ،دار عمار ،ط ثانية ٢٠٠٧م ، صـ٥٣.

(الموافاة) بين المتكلم والمخاطب، وهكذا طرقت التورية الدلالة بأنواعها تـــدرجًا تعبيريًا ؛لاستيفاء أسباب التأثير في المتلقي، بدءًا من الدلالة المعجمية ووصـــولا للدلالة السياقية.

***ومن التورية في الحديث عن الذات قول سراج الدين الوراق من بحر الطويل :

ومن عجب أني أروي ديارهم *** وحظي منها حين أسالها **الصدى**(١)

الشاعر يحكي عن فراق الأحبة ووقوفه بأطلال الديار وحيدًا يجتر أصـــداء الذكريات، وما يترتب على ذلك من مشاعر وجدانية مؤلمة تسيطر عليه حينهـــا، وقد تخير التورية لبث المكنون بأوجز لفظ ممكن (كلمة واحـــدة) ،وإنمـــا لجـــأ للتورية دلالة نفسية ومعنوية ؛إذا وقع في نفس المتلقي مضمون التورية في كلمة (الصدى) فأول ما يعلـــق بالـــذهن هـــو المعنـــى القريـــب : العطـــش الشـــديد، والقرينة(أروي) تقوي المورى به ، كناية عن الدموع والحزن بســـبب الفـــراق ، فيبدأ السامع مع الكلمة حتى يقف ويحس إحساس الشاعر الفاقد للحبيبة وقربهـــا ،ومقدار تأثره بفراقها بقياسه بتأثر المفارق للماء، إنها الحياة بالنســـبة إليـــه ، بفقدها تزول عنه مظاهر الحياة المعروفة، يذبل ويتألم ويعاني في مـــدار زمنـــي، فإذا ما استقر هذا المعنى في مخيلة السامع انتقل إلى المعنى الثاني مـــن معـــاني الصدى؛ ألا وهو الحسن والقيام على الشيء ، والتأثير ، فهو ليس كأي أحد في مستوى العطش لها ،وإنما عطشه يقع في أعلى مقادير الوصف ،وعندما يقر هذا المعنى في نفسية المخاطب ينتقل في روية وتدرج إلى معنـــى (الصـــدأ)، الـــذي يوحي بالتلف والهلاك الذي لحق به جراء الهجر والصد ، ثم إذا به يصـــل إلـــى المعنى البعيد من الكلمة : ألا وهو تردد الصوت، كناية عن الوحدة وفقد الأنـــيس والمحاور الجليس، فيستميل الناس للتعاطف معه بهذه الأحوال المتدرجـــة فعلًـــا ذهنيًا، فهو الحريص على الوصال ،والمداوم عليه (كناية عن الوفاء والإخلاص).

---

١) لمع السراج : صلاح الدين الصفدي،صـــ٣٤.

وهكذا تدرج الشاعر في المستوى الدلالي للكلمة بذكاء حتى يحقق مبتغاه، عندما يتنقل ذهن المتلقي بين تلك المعاني جميعًا حتى يصل في النهاية إلى الدلالة السياقية المناسبة للمعنى ، هذا وقد عني الشاعر أيضًا بالدلالة الصوتية للكلمة ؛فحرف الصاد والدال يوحيان بالصد، والصاد أقوى صوتًا من السين لما فيها من الاستعلاء، فالصاد أقوى من السين صوتيًا فتستعمل (صد) لما يصعب إيقافه وإغلاقه ولما فيه من أثر مشاهد ويرى، وصوت الصاد يدل على الصلابة والشدة والقوة والفاعلية، كما أن طبيعته الصفيرية تعطيه قيمة دلالية للنقاء والصفاء مما يصلح معه هذا الصوت لمحاكاة الكثير من أصوات الطبيعة، ومما يناسب صوت الهواء المتردد في جنبات المنزل الخاوي على عروشه ، "والدال فيها المماطلة لما طال من الأثر"(١) كما يدل على الأحاسيس اللمسية وبخاصة الصلابة و الخشونة، فأصبحت الأصوات معبرة عن الأحوال والأفعال المتجشمة التي يعانيها المتكلم وجدانيًا وظاهريًا في تلك اللحظة المؤثرة ، كما عني الشاعر بالدلالة الصرفية ببناء الكلمة على المصدرية تجسيدًا للمبالغة في صورتها ،وكأن الصدى قد تحول إلى هيئة مرئية تتكتل وتقوى في تمام بنيانها ، وبالتركيز على الحدث دون فعله. كما عني بالدلالة النحوية بجعل الصدى خبرًا (وحظي منها حين أسألها الصدى) ليجعل الفائدة من المبتدأ محققة به ومتوقفة عليه ، وإذا سكتنا عنه لا نعرف للجملة معنى ،بل لا ندري قبل هذه الكلمة مقصوده الإخباري المتعلق به ، فتذهب العقول إلى التوقعات والتخيلات،؛ ماذا كان حظه ، وكيف كان ؟ ، حتى يأتي الخبر محددًا فيحسم الأمر ويدرك السامعون منه خلو الديار وخواء المكان من مقومات الحياة الإنسانية ، وأثر الوحشة على الشاعر في تلك اللحظة، وهكذا كانت الدلالة النحوية أو التركيبية هي التي تتم بها الفائدة ولولاها ما كان لنا أن نفهم ماذا يريد الشاعر أن يخبرنا عن حظه منها حين سألها، بل ويجوز أن تكون الكلمة المورية مبتدأ مؤخرًا بتقديم الخبر عليها ؛ والتقدير : الصدى حظي منها

١) الخصائص : ابن جني ، تح/ عبد الحكيم محمد ،المكتبة التوفيقية ج٢/ ١٥٨.

حين أسألها ، فيكون موقعها النحوي تركيزًا على المدلول وإثباته. وإنما أخر للتشويق المنتظر بعد هذه المقدمة في الشطر الأول.

وهكذا راعى الشاعر هنا كل أبعاد المستوى الدلالي(المعجمي والصرفي والنحوي والصوتي والسياقي) حتى يصل إلى وجدان المتلقي يشاركه كل هذه الأبعاد متنقلًا بينها جميعًا في صبر وذكاء.

*** ومن التورية في الحديث عن المواقف الإنسانية الذاتية قول الشاعر:

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة **** دعوني فإني **آكل العيش بالجبن**(١)

إن الشاعر هنا وظف دلالات التورية أحسن توظيف ؛حيثما استغل البعد الدلالي للتعاطف معه والتبرير لمواقفه التخاذلية حين تشتد الأزمات على من حوله، فدلالة كلمة (العيش) المعجمية و المتقدمة في اللفظ تركيبًا : ما تكون به الحياة من المطعم والمشرب والدخل المادي ، ويعنى بها الحياة وقد تدرجت في الاستعمال البشري والعرف الاجتماعي حتى أصبحت تطلق على الخبز، من قبيل المجاز المرسل بإطلاق السبب على المسبب؛ لما كان الخبز من أهم مقومات الحياة ، وحتى أصبح حقيقة عرفية سائدة بين الناس ، وهاتان دلالتان متداخلتان تسبق إحداهما الأخرى في استقرار السامع كل حسب ثقافاته وتوقعاته، فالفقير جل عنايته لقمة العيش، أما الغني فجل عنايته متع الحياة، وذكاء الشاعر اللغوي استدعاه معنى قريبًا (المورى به) حتى يتدرج ببطء إلى عقل وعاطفة السامع ؛ حين يدرك أن فقر المتكلم وحاجته المادية أحد المكونات الشخصية المؤثرة في مواقفه الإنسانية، وأحد البواعث النفسية المحطمة عند الملمات أو المواقف، فهو لا يملك إلا أدنى مقومات الحياة متمثلة في الخبز، ولذا ذكر ملائمًا للمعنى القريب وهو كلمة (آكل)، حتى يقر في المتلقي هذا المعنى ،فيستثير فيه التعاطف معه وقبول فعله، ثم تشارك الدلالة النحوية في هذا البعد النفسي والذهني بإيقاع الكلمة مفعولا بها ؛ مما يؤكد خضوع المتكلم للأحداث خضوع المفعول للفاعل ،وكأن

---

١) ديوان ابن نباتة المصري: تح/ ياسر محمد خير المقداد ،ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ص،٥٤٤.

لسان حاله يقول :إنما أنا مفعول لحاجاتي المعيشية التي تملي علي الحدث وتوقعه بي إجبارًا لا اختيارًا.

كما توحي الدلالة الصرفية هنا بقوة الفعل وأثره باستعمال المصدر وثبات زمانه، والدلالة الصوتية لصوت العين الحلقي ،مما يرمز إلى الأمر العظيم، وصوت الياء في حالة سكونه يدل على اللين ،مما يرمز إلى السكون والخضوع ، وصوت الشين من وسط اللسان ومن صفاته التفشي بسبب انتشار النفس في الفم عند التلفظ به، مما يرمز إلى شيوع الوصف، إن بعثرة النفس في أثناء خروج صوت الحرف يماثل الأحداث التي تتم فيها البعثرة والانتشار والتخليط ،"وصوته يوحي بإحساس لمسي بين الجفاف والتقبض"(١). مما يناسب حالة الشاعر المادية.

ومتى ثبتت تلك الدلالات المتعاقبة في الفكر(المعجمية والصرفية والنحوية والصوتية) ينتقل الذهن تلقائيًا إلى الدلالة السياقية والمقصودة في الحوار(المورى عنها) لتشمل عموم الحياة؛ فيدرك المتلقي بعدها مقدار عناية المتكلم بأسباب الحياة وانشغاله عما سواها، وأن ذاك هو حال البشر وديدنهم، وبذلك يرمي بلائمة التخاذل على سبب آخر غير ما يتوقعه الذهن، فيبعد عن لائمة العتاب، وهكذا بدأت دلالة التورية عامة ثم انتهت إلى التخصيص والتعيين ،وهي بذلك أسرع في القبول والإقناع لما فيها من حرية الوصول للمراد ،ومن حيث كان الإلزام يوجب العناد والرفض.

ثم ينتقل بعدها الذهن إلى تورية أخرى في السياق؛ ألا وهي كلمة (الجبن)والتي تحمل في أوليات دلالتها معنى المطعوم المصنوع من اللبن، والذي يسري للذهن متوافقًا مع التورية الأولى والسابقة عليه؛ في كلمة(العيش) فلا يقع في الخيال القريب سواه بسبب اجتماعهما الذهني ، وكأني بهذه الدلالة القريبة أتصور وضع الجبن المتجمد بطريقة خاصة، فما يزال العقل يركن إلى تلك الهيئة

---

١) خصائص الحروف العربية : حسن عباس ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،١٩٩٨م صـ١١٩.

حتى يدرك أنها تمهيد وتوطئة فكرية تأثيرية للمقصود الأصلي من الكلمة(المورى عنه) ألا وهو تهيب الإقدام على ما لا ينبغي أن يخاف؛ مما يعني الخور الذي هو عكس الشجاعة، وكأن قوته قد ضعفت وخارت فألزمته مكانه وحينها لبس الخوف رداء وامتطاه جوادًا يهيم به في جوانب التراجع وحساب المواقف، فيقف عنده العقل راضيًا به دلالة.

ثم تتلاحم الدلالة النحوية مع الدلالة السياقية بوقوع الكلمة مجرورة بحرف الجر للدلالة على الإلصاق والملازمة والاستعانة ؛وكأنه يستعين بصفة الجبن على مصارع العيش ومتطلباته، وهي تقرر معنيي التورية القريب والبعيد ؛من حيث كانت استعانته بالجبن المطعوم في استساغة الخبز ،أو استعانته به كصفة إنسانية في مواجهة المواقف. وقد أكدت هذا صيغة الدلالة الصرفية باستعمال المصدر (الجبن) دلالة على تمكن الصفة في صاحبها، وثبوتها فيه ورسوخ صاحبها في هذا الوصف، مشيرًا به إلى طبيعته التي خلق عليها ،وكأنه هنا يلوح بما أخبر به رسولنا الكريم من جواز كون المؤمن جبانًا، مما لا يتنافى مع صفة الإيمان ، ثم أخيرًا كانت الدلالة السياقية حتى تتسق مع ما ذكره الشاعر ملائمًا للمعنى البعيد وهو قوله (شنوا ...)حين استهل به الشطر الأول من الكلام، وأراه هنا بذلك التقييد لزمن المقول يمدح نفسه بطريقة عقلية برهانية قياسية ويبعد عنها النقيصة، ويبطل الدلالة الذهنية المعهودة ؛ فالذين دعوه إلى الحرب ما كانوا أهل حق ودفع عن الديار ،وإنما هم أهل سلب وعدوان وإغارة على حقوق الآخرين ، بينما كان هو من أهل السلم الداعين إلى الحفاظ على الأرواح، وهكذا تمكن الشاعر من إقناعنا بفضله وأخلاقه وميله السلمي وطهارة ثوبه عن الظلم وسفك الدماء ؛ بعدما وقع في النفوس من جبن وضعف وتخاذل؛ فيتحول الفكر المتلقي للخبر من الرفض والاستهجان إلى القبول والاستحسان وما تم كل ذلك إلا بطريق التورية، والتي كانت مجردة لذكر لازم لكل من المعنى القريب والبعيد ، وهذه بلاغة التورية المجردة في تعادل كفتي الميزان المعنوي واعتمادها على فطنة المتلقي وثروته اللفظية واللغوية.

والدلالة الصوتية لكلمة(الجبن) من حيث كان صوت الجيم من الحروف الشديدة ، كما تتميز بأنها صوت جهوري مقلقل ،مستفل، مستعل، وكلها صفات تتناسب شدة وصورة مع حال الفعل الواقع (الجبن) كصفة وخلق تظهر سماته للعيان ويطغى على السلوك ، وصوت الباء شفوي مجهور تتذبذب معه الأوتار، يدل على الاتساع والارتفاع ، مما يؤكد اتساع الوصف به ، ثم يأتي صوت النون الذي يدل على الظهور في كثير من الألفاظ.

المبحث الثاني : التورية ومستواها الدلالي في مقام الخوف أو الحيل :

وأول ما نستشهد به هنا : ما ورد في إجابة أبي بكر –رضي الله عنه– عندما سئل عن شخصية رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في أثناء الهجرة معًا، فقال خوفًا وحرصًا وحماية في وصف الرسول بإيجاز اقتضاه الزمان والحال : ""هذا الرجل **يهديني** السبيل""(١).

فأول ما يسري إلى الذهن من مضمون الكلمة المعجمية معنى : الدليل، خاصة وأنهما يمشيان في الطريق حقيقة، ومألوف عند العرب اتخاذهم في السفر البعيد دليلًا بسبب اتساع الصحاري وتعدد طرقها ؛ مما يتسق فيه المعنى مع الحال والواقع الظاهري للفعل، فيقر في نفس السائل ويطمئن إلى هذه الإجابة ، وعندها يذكر بعد ذلك كلمة(السبيل) التي تلائم المعنى القريب، مما يقوي معنى : إرشاد الطريق الصحراوي، ثم تحتمل الكلمة أيضًا من المعاني المعجمية : معنى الصوت ، من حيث كان دليل الطرق يرمز إلى التوضيح والإرشاد لمعالم الطريق الملتبسة والوعرة ، فهو صوت الخبرة والدربة والمعرفة بأسرار الطرق ودروبها المتعددة ، وكل ذلك مما يتصل بصفات الدليل ويشيد به موظفًا في عمله المأجور له ، ثم يجوز أن تحمل الكلمة من مضامينها المعجمية أيضًا : معنى اعتماد أحدهما على الآخر ، إذ يقال: جاء يتهادى بين اثنين :أي يعتمد عليهما في مشيه، فيتعلق الذهن بمعنى اعتماد أبي بكر على هذا الهادي المشار إليه(النبي) جسديًا ونفسيًا ، استقواء واستئناسًا على الضعف والوحدة والوحشة، كما يتعلق الذهن أيضًا بمعنى الهدية المهداة للغير من غير طلب دلالة على المودة والمحبة القائمة بين الشخصيتين، وهكذا يظل الذهن عالقًا مع كل تلك المضامين المتسعة وتتساوى عنده احتمالات التأويل حتى يصل تدريجيًا إلى تخصيص الدلالة والمراد بها دلالة أخرى غير ما سبق ؛ دلالة تتسق مع الواقع الديني والإنساني، وأنها يراد بها

---

١) صحيح البخاري / رقم الحديث ٣٩١١، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة ، دار ابن كثير ، بيروت ط ١، سنة ٢٠٠٢م ١٤٢٣ه.

دلالة الرشاد للدين الإسلامي ، والدعوة إلى توحيد الله وبيان أصول الدين والعقيدة ،إنها هداية النبوة والرسالة ."وأنه إنما يريد هداية سبيل الخير"(١).

وقد تآلفت الدلالة بأنواعها ومستوياتها في كلمة التورية حيث وقعت الكلمة في الدلالة النحوية خبرًا مصوغًا في(جملة فعلية) تتشوق إليه المعرفة؛ لتبني عليه أحكامًا وأفكارًا وتوضيحًا لمجهول فكري داخلي راود السائل عند السؤال، وكان يمكن لأبي بكر أن يقول مباشرة : يهديني ، ولكنه صاغ الجملة اسمية فقال: هذا الرجل يهديني السبيل ، بالنص على المبتدأ ثم الخبر؛ حتى يمكن الخبر في الذهن تمكينًا يقطع معه أي شك أو ريبة. ثم كانت الدلالة الصرفية باختيار الفعل المضارع ليدل على تجدد سابق وحاضر ومستقبلي للهداية مع استمرار وتكرار الحدث؛ مما يفيد التجديد حينًا بعد آخر ،وهو ما يتوافق مع الواقع العملي لسنة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام الهادية لكل زمان ومكان. كما كانت الدلالة الصوتية في صوت الهاء وما يتسم به من صفة الهمس مع الرخاوة مع الانفتاح ، مما يتناسب مع واقع الدعوة للإسلام الذي يهمس في البشرية بنداء الوحدانية ، وهو نداء قديم قدم البشرية والوجود، ثم تلاه صوت الدال لما طال من الأثر؛ حتى يشير إلى ديمومة الهداية به واستمرارها ، وهو من الحروف الدالة عن معاني الشدة والفعالية الماديتين. وصوت الياء الطويل يدل على امتداد الصفة مع امتداد الصوت بها. وصوت النون الدال على ظهورها.

**** ومنه قول الرسول عندما لقي طليعة للمشركين وهو في سفر من أصحابه ، فقال المشركون :ممن أنتم ؟ فقال النبيﷺ: (**نحن من ماء**) فنظر بعضهم إلى بعض ؛ فقالوا : أحياء اليمن كثيرة لعلهم منهم ، وانصرفوا(٢).

عف لسان النبي-ﷺ- عن الكذب وهو الصادق الأمين ، فكانت التورية سبيلًا تعبيريًا يركن إليه عند الحاجة الملحة والضرورة الأمنية على الدعوة، باستغلال طاقات التورية الإيحائية ، اعتمادًا على سعة فهم ولغة السامع، فجاءت

١) أدب الدين والدنيا :أبو الحسن الماوردي، دار المنهاج ، ط أولى ،٢٠١٣م صـ٢٥٧.

٢) السيرة النبوية: ابن هشام ، المكتبة الإسلامية ،موقع لإسلام ويب ، ج١/٦١٦.

كلمة (ماء) هنا وهي تحتمل في معناها المعجمي أن تكون من أموأ الرجل : إذا صاح ،وكأن الرسول-ﷺ- ينسب نفسه إلى تلك المجموعة الجديدة(المسلمين) أصحاب الدين الجديد الذين يأنون تحت وطأة التعذيب والتهجير والمعاناة، والتي انتشر بين القبائل ذكرها وذاع صيتها، -وهو في ذلك الوصف صادق النية والحدث- فالرسول يصيح بالحق الجديد بين الناس ، كما لا يزال يتسرب إلى معنى الكلمة احتمالية أن تكون اسمًا لقبيلة غير معروفة ؛وهو ما بنى عليه السامعون تحليلهم حين ظنوا في اعتقادهم البشري أنهم من أحياء اليمن الكثيرة والمتعددة ، حتى انصرفوا بعدما سمعوا ، لأنهم فسروا الكلمة بأنها علم لقبيلة لم يعلموا بوجودها ، فارتاحت نفوسهم لهذا الاحتمال ، ثم لا تزال الكلمة تتدرج في معانيها حتى تشمل معنى ماء العيون : المياه التي تنبع من باطن الأرض ، من ماء جمع أمواه ومياه :الماء المعروف ،حتى تصل بالسامعين إلى المعنى المراد من التورية وهو المعنى البعيد : وأراد النبي معنى مخصوصًا ؛ ألا وهو تقرير بشريته وأنه من صلب آدم ، مخلوق من ماء دافق، ماء الرجل الذي يحمل الأجنة البشرية والذرية ، وذلك جوهر التورية المقصود وأنه بشر مثلهم وإنما هو رسول من عند الله، "فورى عن الإخبار بنسبه بأمر محتمل"(١). وبدلالة ضمير الجمع للمتكلم (نحن) مما يلائم المعنى البعيد ؛أي نحن كل البشر ، وهو أصدق الحديث ، ولإشارته إلى قول الله عز وجل في كتابه المعجز:﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾(٢).

هذا وقد وردت كلمة الماء في القرآن الكريم في نحو ثلاث وستين آية، وبمفاهيم مختلفة ؛ إما بمعنى العيون والأنهار، وإما بمعنى المطر، وإما بمعنى النطفة ،وإما بمعنى المال.

والدلالة النحوية في استعمال الجار والمجرور دلالة على التلازم؛ تلازم الخلق لكينونة الماء، وتلازم المبتدأ للخبر حتى تتم الفائدة المرجوة ، و(من) هنا

---

١) أدب الدين والدنيا: صـ٢٥٧.

٢) سورة النور آية(٤٥).

تعبيضية ، نحن من خلق الله ، أو ابتدائية ، أي بدأنا من أصل الماء، وكلا المعنيين محتمل في جانب من جوانبه . ولو قيل: (نحن ماء) لما كانت دلالة التلازم تلك ،ولتغير مفهوم التورية ؛إذ تصير الجملة على سبيل التشبيه البليغ : نحن مثل ماء ، في القوة والجريان والتهديد بهما ،وهذا ما لم يكن بحال من الأحوال فهو في مقام الضعف الدعوي التي تحتاج اللين والتصبر . أو يفهم منها توكيد كون كلمة الماء يقصد بها العلم للقبيلة؛ مما يؤخذ على جهة الكذب المحال على الأنبياء ؛ لذا كانت دلالة الجار والمجرور هنا دلالة ضرورة إلهامية للسامع إن أدرك وأصاب ، وضرورة تحفظية للمتكلم إن خاف شيئًا.

وشبه الجملة هنا وقعت خبرًا عن المبتدأ ،ودلالة الخبر على أهميته بالنسبة للسامع الذي ينتظره جوابًا وتحديًدا للمجهول الغيبي، والصيغة الصرفية للاسم الممدود المفرد دلالة على وحدة الأصل ونفي التمييز الطبقي أو الخلقي ثبوتًا ودوامًا ، بل جاء منكرا ليدل على عموم جنس الماء في إشارة دلالية إلى اختلاف النطف فيه وتعددها.

والدلالة الصوتية لصوت الميم الدال على ذلق اللسان والشفة عند النطق به مما يوحي بجريان الجنس البشري وتعدد سريانه في سرعة وخفة الصوت المتحرك به، وانفراج الشفتين أثناء خروج صوت الميم فهو يمثل الحدث الذي فيه التوسع والامتداد للجنس البشري، ثم كان صوت الألف مع الهمزة مدًّا صوتيًا يتناسب مع السعة البشرية وامتدادها ألوف السنين.

*** ومن التورية في مقام الخوف ما أخرجه الطبري من طريق محمد بن سيرين : قال" كان رجل من باهلة عيونًا – أي كثير الإصابة بالعين – فرأى بغلة لشريح فأعجب بها ، فخشي شريح عليها ،فقال : إنها إذا ربضت لا تقف حتى **تقام** ، فقال : أف أف ، فسلمت منه"(١).

---

١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني ، كتاب الأدب ، باب المعاريض ، المكتبة الإسلامية ج١٠/٦٠٩.

لجأ شريح بن الحارث القاضي الشهير إلى التورية عند الخوف على دابته من الحسد، ونفورًا من الكذب الممقوت ، والكلمة تحتمل معاني عدة (١)؛ فأول ما يطرق الذهن أن تكون الكلمة مشتقة من الفعل (أقام)أي أزالها من مكانها ضد أقعده، فتكون كناية عن الكسل والخمول والبلادة، واحتياجها الدائم إلى المحرك ، وهذا ذم لها في عين الحاسد ، أو تكون الكلمة مشتقة من قوَّم الشيء: إذا عدله، أي لا تقوم حتى تضرب وتساق ، وتتدرج لتحتمل أن تكون من قام الرجل المرأة :قام بشأنها ورعايتها وتدبير أمورها ، فلا تتحرك حتى يهذبها صاحبها ويصلح شأنها المعهود ويتولى قيادها ، مما يوحي أيضًا بعنادها وعصيانها أوامر قائدها، ولا تزال الكلمة تحتمل أن تكون من قام الأمر : اعتدل ، فتكون بمعنى لا تنتصب واقفة استعدادًا للقيام حتى تأخذ ما يكفيها من الراحة والطعام ، كناية عن كونها بطيئة الحركة وأن سمنتها تعوقها عن الحركة السريعة عند استدعاء القيام منها، وهكذا ألبس المتكلم المعنى احتمالات عدة تجعل السامع لا يحدد أيا منها تحديدًا قاطعًا؛ لعلة وحاجة في نفس المتكلم ؛ألا وهي مخافة الحسد ، ولم يكد يصل السامع إلى المعنى المورى عنه إلا بعد فترة زمنية من التفكير ،وأنه إنما أراد المتكلم معنى مخصوصًا يتناسب مع شخصيته وقناعته الدينية ويقينه ؛أي حتى يقيمها الله تعالى، توكيدًا لخضوعها لله ومشيئته المنصوص عليها في قوله تعالى﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾(٢) ، وهكذا طرقت التورية البشرية للتنفيس عن الخوف الشعوري الداخلي، وللخروج من مأزق الكذب المذموم.

وظهرت الدلالة النحوية في وقوع الكلمة مبنية للمفعول استغلالا للتعمية الفكرية المقصودة في المعنى المورى به ،و للعلم بالفاعل سواء كان للمعنى المورى به أو المعنى المورى عنه، والدلالة الصرفية للفعل المضارع هنا تنبيهًا إلى معنى التجدد والاستمرار والتكرار، أما الدلالة الصوتية للتاء للدلالة على

١) ينظر : معجم القاموس المحيط مادة (قوم).

٢) سورة هود آية (٥٦).

المطاوعة ،وللدلالة على الطلب أي طلب قيامها من الله، وهو صوت أسناني انفجاري مرقق وتتميز بصفات تتراوح بين القوة والضعف بالنسبة لغيرها ،والصوت الذي يتسم بالقوة يؤثر فيما جاوره من الأصوات الضعيفة فينقل أبدا الأضعف إلى الأقوى ليقوي الكلام، ثم يأتي صوت القاف الشديدة لطبيعة مخرجها المحكم والمجهورة لقوة الاعتماد على مخرجها، والمفخمة مما يناسب معنى الاعتماد على الله ، ثم يأتي صوت الألف الدال على البعد الأفقي للقيام والاستغراق الزمني للفعل ، ثم صوت الميم وانفراج الشفتين أثناء خروجه مما يمثل الحدث الذي فيه التوسع والامتداد والانفراج بما يلائم حال الحركة المنتظرة لهذه الدابة بعد المرابضة الطويلة في مكانها.

*** ومنه قول الخليل إبراهيم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾(١)

وردت التورية على لسان نبي الله إبراهيم -عليه السلام- في حواره مع قومه واستدلاله العقلي(باستغلال طاقات المذهب الكلامي)على بطلان عبادتهم ، حينما قرر أن يخلو ببيت الأصنام ليتخلص منها، "وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خاليًا في بيت الأصنام فيقدر على كسرها"(٢)

فجاءت كلمة(سقيم) ليقف عندها القارئ كما وقف عندها المفسرون ، يستعرضون معناها ويعللون ورودها ؛ فظاهر الكلمة المعجمي يراد به المرض المزمن، وهذا بالتالي لا يزال يتدرج بنا إلى معنى الضعف ؛لأنه متى طال المرض بالبدن ضعفت البنية الجسمية ،وتلك حتمية طبيعية ،وإذا تمكن الضعف من البدن أثر على نفسية المريض مما يؤدي به إلى معنى الضيق، فتكون الكلمة قالها خليل الله معبرًا عن ضيقه وتعبه وأفصح عنه ليتركوه وشأنه، ولم يكن هذا كذبًا منه بأي حال من الأحوال ، وإنما هو تقرير له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم

---

١) سورة الصافات آية(٨٨،٨٩).

٢) التفسير الكبير : الرازي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م ، ط أولى، ج٢٦/ ٣٥١.

، وإن الضيق ليمرض ويسقم ذويه، وقلب إبراهيم لم يكن في راحة ونفسه لم تكن في استرواح ،- إن علماء الطب في العصر الحديث يقولون إن هناك متلازمة القلب المكسور، وتكون نتيجة عن الحزن الذي يؤدي إلى مضاعفات أمراض القلب – فلا يتنافى هنا أن يكون الضيق مسببًا للمرض، هذه دلالات محتملة للكلمة حتى نصل مع تلك الاحتمالات إلى المعنى المورى عنه؛ أي إني سقيم بما أرى من عبادتكم لغير الله ، فإصرارهم على الكفر وانحراف فطرتهم أدى به إلى أن يئس من استجابتهم له مما مكن الضيق من قلبه وأتعب قواه، أو يكون معناه التعريض بما هو مستقبل محتوم لشدة الحزن ؛فيكون تعريضًا بمستقبل الحدث، فيكون المعنى: إني سأسقم إذا حل الأجل بي ، كما قال تعالى في موضع آخر﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾(١) أي ستموت في آجل الزمن. وهكذا فرَّ خليل الله- عليه السلام -عند الحيلة إلى التورية بديلًا عن الكذب الممقوت والمأثوم.

وتشابكت الدلالة النحوية للكلمة مع الدلالة المعجمية حتى تصل بنا إلى الدلالة السياقية المعنية ؛ من حيث وقعت الكلمة خبرًا عن ضمير المتكلم المفرد (إني) في سياق الخبر الطلبي الذي يلقى للمخاطب المتردد في الحكم ،ويكون مصحوبًا بمؤكد واحد استحسانًا، فروعيت هذه الهندسة التركيبية للجملة لتعيين المتكلم بصفة مخصوصة حتى يحقق في إيجاز وسرعة ما يريد من استجلاب العذر من قومه وتركه في مكانه؛ فينجز مهمته المقررة من تكسير الأصنام ،ومما عضد هذا المعنى هنا أيضًا الدلالة الصرفية للكلمة؛ فالسقيم : صفة مشبهة تدل على الثبوت من (سقم) فتدل على أن الوصف ثابت أو كالثابت مما يدعم ويقوي المعنى المراد ، والبناء الصرفي على وزن (فعيل) بمعنى مفعول مما يعني أن هناك فاعلًا قام بعمل في حال معينة ،ولكنه أكثر منه وبالغ في فعله، مما يؤكد الأثر النفسي لكفر قومه عليه، وشدة حرصه عليهم ،وقوة طلبه لنجاتهم من هذا الكفر المطبق عليهم ،أو تكون اسم مفعول ، فتدل الصيغة على أن الوصف قد وقع

---

١) المؤمنون آية (٣٠).

على صاحبه بحيث أصبح سجية له أو كالسجية، دلالة على الملازمة لـــه ممـــا يرشح المعنى المورى عنه.

والسين من حروف الصفير توحي باللليونة أو النقص مما ناســـب ضـــعف البدن والوهن الذي أصاب بدنه وروحه ، والصوت الداخلي للحـــزن ، ثـــم يـــأتي صوت القاف الشديدة لطبيعة مخرجها المحكم ،والمجهورة لقوة الاعتمـــاد علـــى مخرجها، والمفخمة مما يناسب ركونه إلى عدم الذهاب معهم وجلوسه في مقـــام الحديث القائم بينه وبين قومه، ثم صوت الياء الصوت الطويـــل، ممـــا يـــوحي بامتداد الصفة مع امتداد الصوت بها، مما يناسب حال الألم والأثر النفسي الواقع عليه جراء كفر أبيه وقومه، وصوت الميم يمثل الأحداث التي يتم فيهـــا التوســـع والامتداد في الصفة المذكورة.

المبحث الثالث : التورية ومستواها الدلالي في مقام المدح :

ومن التورية في مدح حال المؤمنين يوم القيامة قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾(١)

حيث تبين أثر السعادة الظاهرة على وجوههم، فكانت التورية في كلمة (ناعمة)وسيلة بلاغية جمالية للتفكير الذهني للمتلقي ؛حيث يتوهم السامع لأول وهلة معناها المعجمي الذي هو : مؤنث الناعم، اسم فاعل من (نَعِم) ،وأنه أراد بها وصف الوجوه الظاهرة بالنعومة واللين والرقة، دليلا على الرفاهية والسعادة مما يناسب حال المؤمنين الظاهري من حيث كانوا بمنأى عن الخشونة والجفاف والصلابة والقسوة الثابتة للكافرين ، ولا يزال العقل يسبح في معنى الكلمة ويرضى بها وصفًا يوضح تباين الأوصاف بين الفريقين المتضادين(الكافرين والمؤمنين) ، خاصة بعد ذكر كلمة(وجوه) مما يتناسب مع المضمون التلقائي للكلمة، ويلائم المعنى القريب المتسرب للذهن تلقائيًا ،ليعيش العقل مع مفهوم النعومة الجلدية التي يحرص عليها الناس طوال فترة الحياة ، ثم يتدرج الذهن إلى معنى آخر أوسع وأشمل وأنسب بالمقام والحال والاستقرار الدائم ، فينتقل من خصوصية الدلالة إلى اتساعها وشموليتها حين يدرك أنه مما يتناسب مع الحال العام للمؤمنين التي يقتضيها الخلود المفهوم من التقييد بالظرفية(يومئذ)؛حتى يدرك أن مقصود معنى النعمة قد جاء من **النعيم**(٢)، أي وجوههم متنعمة(٣)، يظهر عليها حال النعيم ، وليس من النعومة ، فهم منعمون بجملة الحال ،وليست الوجوه إلا دليلًا على الحال الواقعين فيها، "أي أنهم في نعمة وكرامة"(٤) مما به يعرف النعيم الحقيقي ، مجاز عقلي علاقته الحالية أي هم في النعمة وطيب العيش ،يقال نعم النعمة: الحالة الحسنة ،والنعمة التنعم ، والنعمى نقيض البؤس

---

١) سورة الغاشية آية (٨).

٢) ينظر تفسير البحر المحيط : أبو حيان التوحيدي، ، ط دار الفكر ، ج٨/ صـ٤٦٠.

٣) التفسير الكبير ، ج٣١/١٤٢.

٤) روضة الفصاحة ،صـ١١٤.

(الروضة الحسنة العيش والغذاء)،فكانت التورية أدل على الحال والمآل معًا لتعظيم أثر النعمة على الأبدان والنفسيات ،بل أدق في وصف الحالة النفسية والجسمية التي يمتع بها المؤمنون يوم القيامة، لتدل على كمال أسباب السعادة في الآخرة في كل شيء باطنًا وظاهرًا .

هذا وكانت الدلالة النحوية بوقوع كلمة التورية خبرًا يتشوق إليه العقل ويستدعيه سريعًا، خاصة بعد ما كان في الحال المضادة؛ فتطلبت البشارة هنا بالخير سرعة وصول الخبر للسمع حتى يقر في الوجدان . ثم عنيت الدلالة الصرفية في صياغة اسم الفاعل الدال على التغيير والتطور والتحديث؛ لأن الوصف بالناعم، أدوم وأثبت من الفعل ،دلالة إيحائية على المداومة والثبات، وفي ذلك مخالفة لحال الدنيا المتقلبة التي هي سجن المؤمن.

وكانت الدلالة الصوتية لحرف النون الدال على ظهور الشأن ؛ مما يتناسب مع البشارة القائمة والإعلان المطمئن لهذه الفئة من البشر، ثم مجيء صوت العين الحلقي ، ودلالته على الإشراق والظهور والسمو مما يرمز إلى الأمر العظيم، الذي يتناسب مع الحال العظيم والرغيد التي يعيشها المؤمنون يوم القيامة ، وصوت الميم الدال على ذلق اللسان والشفة عند النطق به مما يوحي بجريان النعمة وانسيابها عليهم في سهولة ويسر على عكس ما كان من شأن الدنيا ومعاناة أسباب العيش فيها. وأما انفراج الشفتين أثناء خروج صوت الميم فهو يمثل الحدث الذي فيه التوسع والامتداد والانفراج بما يلائم حال النعمة في الجنة.

*** ومن التورية في المدح قول الشاعر:

ولا برحت مصر أحق **بيوسف** *** من الشام لكن الحظوظ تقسم(١)

فالتورية وقعت في قول الشاعر (يوسف) وأول ما يتبادر للذهن عند قراءة الكلمة هو النبي يوسف–عليه وعلى نبينا أفضل صلاة وسلام–وهو ما يسمى في التورية (المورى به)وقد استقر في مصر بعد خروجه من الشام في قصته

١)ديوان ابن سناء الملك : تح/ محمد إبراهيم نصر – حسين محمد نصار ، وزارة الثقافة المصرية دار الكاتب العربي ،١٩٦٩م ، مج١/ صـ ١١٨.

المعروفة بغدر الإخوة، والحزن ورجوع الغائب بعد اليأس ،وارتفاع الشأن بعد الحبس، فألقت الكلمة بظلها الديني والنفسي لاستحضار التعظيم ،والجلال، والجمال، والتعاطف، والملك، والهيبة، بعد المعاناة والغدر، وبث هذه المعاني جميعًا في نفس المتلقي، بعدما استجلب المتكلم أيضًا الدلالة المعجمية والتي جاءت من (توسف)([1])أي الحسن ،وقيل: وسف بمعنى ظهر وأخصب وسمن، والصواب أنه أعجمي لا اشتقاق له([2]) ، فكان المعنى الدلالي إيجازًا وبعدًا زمنيًا للمعاناة الشخصية ليوسف منذ صباه حتى الفرج ؛ واستدعاء الشاعر التورية البديعية هنا ليست من خوف أو من بطش، وإنما لتبجيل وتعظيم مكنون ، وتحريك الوجدان الديني والإنساني والتاريخي في نفس السامعين، حين يرتبط ذهنهم ووجدانهم باسم الذات(العلم)، وللفت الانتباه إلى مواضع التقاء الشخصيتين(المورى عنه–صلاح الدين–،والمورى به– يوسف الصديق–) حتى يتمكن من السيطرة على المتلقي، وترسيخًا للبعد الديني في السامع بهذه الدلالة القريبة الظاهرة والتي أيدتها ورشحتها كلمتا(مصر) و(الشام)، لكن سرعان ما ينتقل الذهن إلى السياق الكلي للكلام والحقبة الزمنية التي قيل فيها البيت حتى يدرك تغاير المقصود الظاهري؛ وأن الكلمة يراد بها مدح الشاعر للبطل والفارس النبيل صلاح الدين الأيوبي والذي كان اسمه (يوسف) متوافقًا مع الشخصية الرئيسة للأحداث ،وقد استقر في مصر حاكمًا لها فترة من الزمن ؛ و معاناته منذ صباه في استرداد الدول الإسلامية المسلوبة من الصليبيين؛ لتكون قصته مشابهة لقصة الصديق يوسف–عليه السلام– في بعض الجوانب ؛ وما وقعت التورية هنا موقعها إلا لاستدعاء المعاناة الإنسانية الواقعة للشخصيتين، والربط بين الواقع المقدسي تحت الحكم الصليبي وأثره في نفسية صلاح الدين ،والواقع الشامي

---

١) قاموس الأسماء العربية والمعربة وتفسير معانيها : د/ حنا نصر الحتي ،دار الكتب العلمية بيروت، ط ثالثة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ،صـ٢٠

٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن : السيوطي ، دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ،١٩٨٨م، ج٣/ ٣٦٨.

وأثره في يوسف الصديق ، ولإظهار تكرار الشخصية التاريخية بسماتها البطولية الذهنية ، وحين يستكمل القارئ قراءة القصيدة يدرك أن المورى عنه ليس النبي (يوسف) –عليه وعلى نبينا أفضل صلاة وسلام– بقول الشاعر بعد ذلك البيت :

أَلِفتَ ديار الكفر غزوًا فقد غدا *** جوادك إذ يأتي إليها يحمحم

وقد تدرج الشاعر في بحر الدلالة ما بين معجمية الكلمة (يوسف) إلى صوتية الدلالة فيها ؛ فكانت الياء الرخوة المجهورة اللينة المستعلة المنفتحة، وكأنها تعبر عن الطفولة والنشأة للشخصيتين، والواو صوت يخرج من الجوف معترضًا متجهًا إلى الشفتين ، يدل على البعد السطحي ، وكأنه يعبر عن مرحلتين عمريتين مختلفتين ومنفصلتين، تتباعد فيهما الأحوال والأزمان والمواقف، وتتغاير فيهما الصفات الجسمية والفكرية للشخصيتين على حد سواء ، والسين من حروف الصفير يوحي بالتدرج من الضعف إلى القوة أو من السكون إلى الحركة ، والفاء صوت احتكاكي يحمل دلالة القوة والجبروت، ويحمل صفات الفروسية ، ثم ينتقل الشاعر من الدلالة الصوتية إلى الدلالة النحوية للتورية بوقوع كلمة(يوسف) مجرورة بحرف الجر(الباء) للدلالة على علاقة التلازم بين الجار والمجرور، ودلالة على الإلصاق من معنى الباء ؛ والمراد إلصاق يوسف بمصر ، وفيها معنى الاستعانة ، إشارة إلى ملاصقة الديار الإسلامية (مصر والشام) واستعانتهما بالشخصيتين التاريخيتين في تغيير واقع تاريخي مؤلم في كلا البلدين ؛ ويجوز أن تكون الباء فيها إشارة إلى الأمن النفسي للشخصيتين، وانسياقهما وتبعيتهما للقدر المتحكم في مقاديرهما، والرضا النفسي الكامن داخلهما دون اعتراض أو تذمر إيمانًا ويقينًا وخضوعًا وتسليمًا لله ،وفي حركة الكلمة(الفتحة)– لمنع الكلمة من الصرف – علو ومكانة تتناسب مع المورى عنه والمورى به، وربما تدل على رفعة المحل كما رفعة اللفظ.

***ومن التورية ما جاء في مدح شأن الجنة وتزيينها للمؤمنين قوله تعالى:

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ **عَرَّفَهَا** لَهُمْ﴾(١)

١) سورة محمد الآية رقم (٦).

وردت التورية في وصف حال المؤمنين ومدح مكانهم المقيمين فيه(الجنة)، فشوقهم إليها ونعتها لهم بعد ما ذكر الأعمال الموصلة إليها ، فجاءت الكلمة القرآنية (عرفها) حتى يكون أول ما يسبق إلى الذهن المتلقي من معجمية الدلالة أنها من التعريف بالشيء : أي إدراكه بحاسة من الحواس، أي وصفها وحددها بتعيين جنسها وصفاتها والإعلام بها ، من عرَّف به أي وسمه ، ويحتمل أن يقال عرفها لهم حددها لهم ؛ "فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها من عرف الدار وأرفها أي حددها"(١) ، ثم تحتمل الكلمة من مضامينها معنى إنشاد الضالة أي رغبهم فيها ، وشوقهم إليها بذكرها من كثرة ما ميزت من أوصاف–فقد ورد ذكر الجنة في القرآن الكريم بصيغة المفرد في ست وستين موضعًا ،وجاءت بصيغة الجمع في تسع وستين موضعًا– كما يقال : عرَّف فلان الضالة أي ذكرها، ثم لا تزال تحتمل الكلمة في مضامينها معنى الإقرار لهم بها ، من عرَّف له : أقر له ، أي أقرها وأعدها لهم مقرًا وموئلا، و أن كل أحد يعرف منزلته ومأواه ، "حتى أن أهل الجنة يكونون أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة ينتشرون في الأرض كل أحد يأوي إلى منزله"(٢)، مما يدل على التمكين منها تمكين المالك لممتلكاته ، وفي هذا تطمين وزيادة ثقة في تحقق الموعود بها ، وحتى تكتمل أركان الجمال في كل تلك المضامين المحتملة تضيق الدلالة لتصل إلى معنى آخر يضيف إلى ما سبق زيادة معنى؛ ألا وهو: الرائحة الطيبة من العرف "وهو الطيب" (٣)، وهو في عادة العرب كناية عن شدة الترحيب والحفاوة بالمضيف. ومن ثم أضافت التورية بعدًا جماليًا للمكان والتهيئة للمضيف ، فإذا استقر في الذهن كون هذا الفعل مختصًا بمكان خاص، ومضيف خاص ،يذهب الخيال فيه كل مذهب، ويدل على ذلك عناية التورية بالدلالة النحوية والموقع الرتبي للكلمة في تأويل الجملة؛

---

١) الكشاف : الزمخشري الخوارزمي ، تح /عبد الرازق المهدي، ،دار النشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج٤/٣٢١.

٢)التفسير الكبير، ج٢٨/ ٣٢.

٣) الكشاف : ج٤/٣٢١.

حيث وقعت حالاً دلالة على الملازمة والاستمرار ،واتصال الضمير(المفعول) بالفعل يدل على اتصال الفعل بالمفعول اتصالًا لا يمكن فصله ، واتصال المؤمنين بالجنة اتصال وجود ومكان.

ودلالة صيغة الفعل الماضي صرفيًا ما يؤكد تحقق الوقوع حتى قبل دخولهم فيها؛ إذ جاء الفعل قبل كلمة التورية بصيغة المضارع(ويدخلهم) بينما جاءت التورية بصيغة الماضي ، تحقيقًا للحدث إذ دخول المؤمنين لن يقع إلا بعد يوم القيامة الموعود، أما إعداد الجنة وتزيينها وتجميل رائحتها بالطيب فقد كان وتم وأنجز منذ إيجادها وإنشائها حتى قبل وجود المضيف ،مما يوحي بالاستعداد والتهيئة في الاستقبال وقوة الترحيب لعزيز منتظر، ثم استعمال وزن الفعل(عرَّف) بالتضعيف للتكثير والمبالغة دلالة على كثرة الاستعداد والتهيئة فيه ترحيبًا واعتناء بالمضيف. وصيغة الفعل المبنى من الرباعي تدل على زيادة معنى ؛ فهو أفسح معنى للتهيئة بالطيب وأثبت في الوصف مدة التعريف ،وأدل على حدوث الصفة وتحققها حتى إيصالها إلى أصحابها.

ثم جاءت الدلالة الصوتية لصوت العين ويعد هذا الصوت شاهدًا على مدى قوة الإنسان العربي في السيطرة الكاملة على جهازه الصوتي، أما بالنسبة لدلالاته فإنه يستخدم للدلالة على الفعالية والإشراق والظهور والسمو، حتى نتخيل نوع الطيب الرباني الذي ينتشر في الجنة ، وجاء صوت الراء الدال على التكرار في الفعل المرغوب مع مضاعفته بتطويل المساحة الصوتية في النطق ،وقل في الأداء الصوتي مما ينعكس على دلالة الفعل الموحية بكثرة الترجيع فيه حتى تذهب النفوس في ذلك الطيب كل مذهب، وتتوقع في العدد الكمي أعلى توقع ، ثم صوت الفاء الدال على جريان الصوت جريانا تامًا مما يدل الانتشار المناسب لمعنى الطيب ورائحته، ثم جاء صوت الهاء الدال على الترديد، مرة بعد أخرى مما يناسب أيضًا هيئة الفعل والحدث ، ثم كان صوت الألف الدال على البعد المكاني والزمني والأفقي والرأسي المناسب للجنة العلياء منزلة ومنالًا واتساعًا .وهكذا روعيت صنوف الدلالة في التورية إيحاء لمعان مقصودة.

المبحث الرابع : التورية ومستواها الدلالي في مقام الهزل والطرافة

وتأتي فيه التورية لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح المباح، واستعمال الحس الفكاهي في الحوار للفت الانتباه ، أو كدليل على المودة الإنسانية والقرب النفسي بين المتمازحين.

ومنه ما وقع بين كل من حافظ إبراهيم وشوقي ؛عندما رأى أحمد شوقي مهمومًا؛ فأحب أن يداعبه ويفاكهه ، للتخفيف عنه، وليعود شوقي إلى عادته المرحة فيقول له مخاطبًا :

يقولون إن الشوق نار ولوعة *** فما بال **شوقي** اليوم أصبح باردًا (١)

بدأ حافظ إبراهيم بالتعجب الإنشائي (فما بال) دلالة سياقية على غرابة الحدث والشأن، ثم كان الجناس بين كلمتي (الشوق ،شوقي) يحمل بعدًا نفسيًا ؛ للخروج عن المألوف والمعتاد ،لأن الشوق في الدلالة المعجمية: نزوع النفس إلى الشيء وتعلقها به(٢) ، والرغبة القوية وإظهار اللهفة ،وفيها معنى الشد والمخالفة ، وهو وارد بهذا المعنى في الكلمة الأولى ، أما الثانية فجاءت بمعنى العلم الشهير (أمير الشعراء أحمد شوقي) فجعله شاعر النيل خطابًا تشويقيًا وفكريًا فكاهيًا،

ثم يأتي الرد على هذا الجناس من أمير الشعراء ملاطفًا ومنبهًا بأسلوب التورية والتي تضاهيه روعة وبلاغة(من بحر الكامل) :

وأودعت إنسانًا وكلبًا وديعة *** فخانها الإنسان والكلب **حافظ**(٣)

جاءت التورية في كلمة(حافظ) لتحتمل معاني عدة؛ فالحافظ في اللغة: الحارس ، المانع من الضرر والراعي الواقي منه، فتكون الكلمة مدحًا للموصوف

---

١) ديوان حافظ إبراهيم : شرح/ أحمد أمين – أحمد الزين – إبراهيم الإبياري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٧م، ط ثالثة،صـ٢٠٨.

٢) لسان العرب مادة (شوق).

٣) ينظر : من أروع ما قال شوقي وحافظ إبراهيم وإبراهيم ناجي : إميل ناصف ، دار الجيل ١٩٩٩م .

بها، ثم تحتمل أيضًا معنى الحرص والمواظبة، يقال : حافظ على الأمر أي واظب وداوم عليه ودافع عنه، ثم تتدرج إلى معنى حفظ العلم والكلام واستظهاره عن ظهر قلب والصيانة من الضياع ، وكأنه بعدما سبق من صفات هو راوٍ لأشعاره وقصائده ، كما تأتي الكلمة بمعنى الإيقاف وعدم المضي في الشيء ،يقال : حفظ التحقيق (١)، أي إن حافظًا يقف عند باب الود والمحبة لا يمضي لغيرهما ، فهو حافظ لحدود الصداقة بينهما ، حتى تتدرج إلى معنى الكتمان للأسرار ، و معنى الإكرام ، وهذا المستوى الدلالي له بعد نفسي عند الشاعر؛ ألا وهو ربط الشخصية بمفهوم الوفاء عند حملها على ظاهرها وربطها بالمسند إليه(الكلب) ، فقد يعتقد لأول وهلة مقدار السخرية والتهكم من إسناد الحفظ للكلب ،خاصة بعد تصدير البيت بالحديث عن المقارنة في إيداع الوديعة لشخصيتين مختلفتين خلقًا وطبعًا (الإنسان–الكلب)لكن بعد تمعن الأمر يدرك السامع أن المقصود ليس إهانة شخصية لحافظ إبراهيم ؛وإنما هو فكاهة وتكريم لندرة الوجود وأصالة الطبع وغلبته على المطبوع ، وكأن الشاعر يعرض بالإنسانية كلها والبشرية التي غلبتها الخيانة في جانب، والجانب الآخر يجسد عموم الوفاء في معهود ذهني مخصوص لديه(المورى به) الملازم والراعي والحارس والواقي والكاتم حتى تتدرج الدلالة إلى(المورى عنه)،وكأن التورية هنا جعلت من هذا المعهود أصلًا مخالفًا ومقابلًا للخيانة ،وبدلالة تعريف الإنسان بـ(أل) الجنسية للاستغراق في مقابلة الثاني، إذن التورية تعنى بالتميز والانفراد هنا، عندما يدرك المتلقي أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين المعنى المعجمي والمعنى السياقي ، فكما الكلب يلاحق خليله في أي مكان وزمان يلاحقه صديقه حرصًا وخوفًا وحماية وعونًا في الزمان والمكان أيضًا، وكأن المقصود البعيد من الكلمة هو التبعية والملاصقة والقرب ، والدليل أنه لولا معرفة القائل وسبب القول لوقع في النفس المعنى المعجمي فقط ،ولم يتوارد على الذهن المعنى السياقي إلا بمطالعة الحدث وشخصياته، إذ يقف المعنى عند حدود الوفاء والإخلاص.

---

١) القاموس المحيط مادة (حفظ).

وموقع التورية النحوي يرمي إلى دلالة خاصة ، ما كانت لتفهم لـولا تلـك الرتبة النحوية للكلمة المورية ؛ بإيرادها خبرًا عن المبتدأ لتحمل مضمون التشبيه البليغ المقلوب ؛وكأنه قال صريحًا : والكلب في وفائه مثل حافظ إبراهيم ؛ فجعـل من (حافظ الشاعر) أصل الوفـاء والإخـلاص المحمـودين، اللـذين يسـتمدهما (الكلب)منه طبعًا وأصالة ، وهو بذلك يجعل المشبه به هو الأعلى والأرقـى مـن حيث سعة الصفة وقوتها ، ولو قيل: حافظ الكلب بتغيير رتبة الكلمـة المويـة؛ لتغير المدلول و لا يمكن معرفة حدود الكلمة ، باستشعار الذم وإلحـاق شـاعر النيل بالكلب ، وضياع معنى التشبيه المقلوب الذي قد كان في الدلالـة الأصـيلة الواردة ، كما لا تحتمل التورية كما في الرتبة الأصيلة، لذا روعيـت الهندسـة التركيبية للجملة حتى تحقق هدفًا ما يصيبه من ألم بقواعد اللغة، وهكذا عبـرت الرتبة النحوية للكلمة المورية عن خصوصية دلالة لم تكن لتدرك بتغيير موضعها ، ولذا وقع كثير من المحللين في حيرة الوصف العام- الكلب وما يشير إليه – في تبرير الوصف وكيف يقع من أمير الشعراء لحافظ ، دون النظر إلـى خصوصـية الدلالة النحوية هنا والتي تحمل في طياتها معنى مغايرًا ومخالفًا للظاهر اللفظي .

ولا شك أن هذه الدلالة تتشابك مع الدلالة الصرفية هنا ببناء كلمة التورية على صيغة اسم الفاعل الدال على ثبوت الوصف بالنسبة للفعل، وكمـال المـدح بها، والدال على النسب إلى الشيء: "كقولهم لذي الدرع: دارع" (١).وكأنها تقر به مفضلًا، وتعترف بالمكانة والمنزلة الرفيعة التي يكنها شوقي لحافظ إبراهيم ، وهو يقول : الكلب حافظي ينتمي وينتسب إليَّه وفاء وإخلاصًا ، تقليدًا وفخرًا.

كما أشارت الدلالة الصوتية لصوت الحاء إذا نطق رخوًا مرققًا مرخمًا ممـا يدل على النعومة والدفء ،وصوت الألف الدال على المد واستغراق الـزمن فـي إشارة إلى البعد الزمني للحفظ والرعاية ، ثم كان صوت الفاء الشفوي المهموس للدلالة على خفاء فعله وعدم الإفصاح عنه، "ولرقة صوت الفاء كثيرًا ما يضـفي

---

١)المقتضب: أبو العباس المبرد ، ت/ حسن حمد ،دار الكتـب العلميـة بيـروت ، ٢٠٠٠م ، ج٣/١٦٣.

معنى الضعف والوهن على الألفاظ التي يدخل في تراكيبها"(١)، ثم كان صوت الظاء الاحتكاكي الجهوري ليدل على الفخامة والظهور ويوحي بالتمكن والأناقة ، وفيه استطالة توحي بالظهور بعد الخفاء، وكأن أمير الشعراء يطمئنه بمعرفته لوفائه وإخلاصه وإن لم يظهره حافظ إبراهيم له قولًا .

*** ومن التورية –في مقام الهزل والمزاح– قول حافظ إبراهيم عندما ولد للشيخ أمين تقي الدين الأديب السوري مولود سماه حافظًا فقال شاعر النيل في هذه المناسبة :

فلعنة الله على **حافظ** *** إن لم يكن بالشاعر الماهر

لعل أرض الشام تزهي به *** على بلاد الأدب الزاهر(٢)

التورية في كلمة(**حافظ**) حيث يقف معها المتلقي معجميًا ليعتقد أن المقصود منها أي حافظ لمكتوب من شعر أو نثر، حتى تعم كل واع لمحفوظ – من حيث لم تكن علمًا حينئذ–، حتى يتدرج في تلقيه للمدلول فيصل إلى اسم الذات(العَلَم) فيقع في نفسه ويقنع بأن حافظ إبراهيم الشاعر يعرض بنفسه إن لم يتمكن ويمهر في صنعته الشعرية وموهبته الأدبية، وكأنه يقول بلسان حاله بعد مقاله: أوجبت على نفسي اللعن إن ضيعت صنعتي الشعرية الذائعة، وهذا هو المعنى القريب، المتبادر إلى الفهم المباشر، والذي ذكر ملائمه في قوله(الشاعر الماهر)فإذا ما واصل السامع الأبيات قراءة تبين بعدها من البيت الأخير أن السياق لا يتوافق مع ما ذهب إليه الذهن أولًا، ويتبدل المفهوم حتى يدرك المعنى البعيد للكلمة المورية؛ وأنه يراد بها(الطفل الوليد)ابن الأديب المسمى حافظًا تيمنًا باسمه الشخصي، وبدلالة ذكر الملائم له بعده بقوله(لعل أرض الشام تزهي به على بلاد الأدب الزاهر) في سياق دعائي منه للسماء بنبوغ الوليد المستقبلي وتفوقه على شاعر النيل، وهكذا تدرج التفكير بين مستويات الدلالة فضاقت بعد اتساعها ، يجول العقل بين معانيها المتعددة حتى يصل في نهاية المطاف إلى

---

١) خصائص الحروف العربية : صـ١٣٤.

٢) ديوان حافظ إبراهيم ،ج١/١٨٥.

الدلالة السياقية التي تتوافق مع المراد الذهني لكل من المتكلم والسامع، وقد تضافرت وتضامت سائر أنواع الدلالة، فكانت الدلالة النحوية بوقوع الكلمة المورية مجرورة بحرف الجر للدلالة على علاقة التلازم بين الجار والمجرور(على حافظ)إشارة تركيبية وتوظيفية إلى ضعف الوليد مهما كان، وضعف التكوين الجسمي تحت قدرة الله وإرادته ؛ وكأني به يقول للطفل الوليد لا تعتمد على شهرة والدك الأديب، ولا تركن إلا للموهبة والتي متى فقدت وجبت عليك اللعنة. وتظهر هنا بجلاء الدلالة النحوية في حركة الكلمة(الكسرة) دلالة ذهنية إلى الميل والانكسار متى لم يحقق ما تصبو إليه النفوس.

والدلالة الصرفية كما ورد في الشاهد السابق صيغت على اسم الفاعل الدال على ثبوت الوصف بالنسبة للوليد، والدالة على النسب إلى الشيء وكأنه يقول : هو مني ،هو حافظي ينتمي وينتسب إليَّ شعرًا وموهبة وأداء متى سار على نهجي، وسلك دربي في الشعر، وفيها من التكريم والإشادة والدفع بالوليد إلى الأدب متى سلك دربه والتشجيع إليه.

كما أشارت الدلالة الصوتية لصوت الحاء الرخوي المهموس إلى بداية النشأة والضعف، وإذا نطق رخوًا مرققًا مرخمًا فإنه يدل على النعومة والدفء ،وصوت الألف الدال على المد واستغراق الزمن في إشارة إلى حاجة الوليد الزمنية والممتدة امتداد الصوت إلى العلم والدربة والتجربة في مشواره العمري والأدبي، ثم كان صوت الفاء الشفوي المهموس للدلالة على خفاء شأنه، ثم البعثرة والانتشار، وأخيرًا صوت الظاء الجهوري مما يدل على الفخامة والظهور مع شيء من الشدة والقساوة ، وفيه استطالة توحي بالظهور بعد الخفاء، وكأنه يبشره بالنبوغ وبزوغ نجمه.

*** ومن التورية في مقام الهزل والطرافة : حوار وقع بين عمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان (رضي الله عنهما) حين سأل عمر حذيفة :" كيف أصبحت يا حذيفة؟ فأجابه حذيفة مداعبًا له : أصبحت يا أمير المؤمنين **أكره**

الحق، وأحب الفتنة، وأصلي بغير وضوء، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء. فغضب عمر من الصحابي غضبًا شديدًا ...." (١)

تعددت التورية في هذا الحوار الفكاهي فكانت وسيلة ذهنية للتنشيط واستدعاء إعمال الفكر على طريقة الألغاز والأحاجي، إذ بمجرد سماع كلمات الجملة المقول بها على لسان حذيفة -ﷺ-بقوله:(أصبحت أكره الحق) يتبادر إلى العقل الجمعي للمتلقي -أيا كان- المعنى المعجمي لكلمة الحق؛ أي الثابت بلا شك، والحق : النصيب الواجب للفرد والجماعة مفرد حقوق ، والحق التكليف أو الغلبة والثبوت ، من حق القانون أي أوجبه وأثبته ، أو يكون بمعنى الإحكام والشد كما يقال : حق العقدة: أحكم شدها ، فيكون المعنى أنه يكره القيود ، وكل تلك المدلولات تتسع لها الكلمة فكرًا ووجودًا، فإذا أقر المتكلم بكراهية الكلمة ومفهومها المعجمي؛ هنا مباشرة يتردد المتلقي في قبول هذا المدلول ، خاصة بعد اعتراف المتكلم وهو صحابي جليل من صحابة رسول الله- ﷺ- ، فيتردد الذهن ما بين معجمية الكلمة وصاحبها الناطق بها مقولًا، وحتى لا يطيل المتلقي التأمل يباغته المتكلم بتورية تلو الأخرى بقوله : (وأحب الفتنة) يستثمر فيها أحاسيس السامع ،ومعلوم أن الفتنة في معناها المعجمي : مصدر فتن، ومعناه الابتلاء والاختبار بالنار، ومن هذا يتدرج العقل إلى معنى الإعجاب بالشيء والتدله فيه ، ثم من شدة هذه الحال يقع في معنى آخر للفتنة؛ هو معنى الاضطراب وبلبلة الأفكار ، واختلاف الناس في الآراء وما يقع بينهم من القتال، وعند هذا الحد من المعاني لا يتقبل العقل فكرة محبة الفتنة ؛فأي عاقل ذاك من يحبها ؟! وكيف ينطق حذيفة بها مضمونًا ؟! ومع هذه الحيرة الداخلية للمتلقي والتعجب من شأن المتكلم بها يواصل حذيفة فنون كلامه فلا يدع للمتلقي فرصة ذهنية تأملية بل يظل يباغته، فيتبع السامع بتورية ثالثة في قوله(وأصلي بغير وضوء)،والصلاة والوضوء كلاهما مصطلح إسلامي تغيرت فيهما الدلالة من العموم إلى الخصوص،

---

١) بحر الدموع : أبو الفرج بن الجوزي ، ط أولى ٢٠١٢م ، المملكة الأردنية الهاشمية ، صـ١٨٦.

إذ كانت الصلاة بمعنى الدعاء والرحمة قبل الإسلام، كما كان الوضوء بمعنى الحسن والبهاء، ثم خصصت دلالتهما في المفهوم الإسلامي بعبادة مخصوصة مبينة حدود أوقاتها في الشريعة، ومن شروط قبولها الوضوء: طهارة مائية تخص أعضاء معينة على صفة مخصوصة بنية التعبد(١). يقع في ذهن أي مسلم معناهما الشرعي الدلالي بمجرد ذكرهما في الحوار.

وإلى هنا وقف عمر بن الخطاب -ﷺ-مستنكرًا للفعل والحدث المقول ، وللقائل معًا، إذ كيف يصلي المسلم بدون وضوء؟! ، وحتى لا يدع المتكلم مجالًا للمتلقي في التفكير وإدراك جوهر الدلالة المقصودة يباغته بتورية رابعة بناها في التركيب على المقابلة البديعية، فيقول:(ولي في الأرض ما ليس لله في السماء)، فاللام للملكية والإثبات ،ومن معانيها أيضًا الاختصاص ،وهذان المعنيان الذهنيان يتعارضان مع مفهوم الإيمان الحقيقي، فكيف يكون للقائل ملكية خاصة ينفرد بها المخلوق دون الله سبحانه وتعالى وهو الخالق؛ وهكذا تظل الدلالات المعجمية تتسع وتحلق في الذهن المتلقي لها حتى يصل إلى سياقية الدلالة وتقييدها بمفهوم خاص بالتركيب والحال، حين يقف على طبيعة القائل وتاريخه الإيماني ؛ وقد كان هذا من مخزون المتلقي الثاني الحاضر للقاء -علي بن أبي طالب-ﷺ- الذي حضر الحوار القائم وأدرك مغزاه ومراميه اللغوية فهمًا دقيقًا ،بل وأدرك الدلالة المخصوصة والمقصودة في كل سياق، فنراه يسارع بالتحليل والدلالة عند استشعاره الغضب والانفعال الشديد من عمر بن الخطاب بقوله ": يا أمير المؤمنين والله ما أخطأ الحق بل أصابه فقد قال : أصبحت أكره الحق ومن منا يحب الموت، وأن الموت علينا حق... وقال : أحب الفتنة ،وكلنا ذلك الرجل (المال والأولاد)..وقال : وأصلي بغير وضوء ،من منا يتوضأ ليصلي على رسول الله. وقال : ولي في الأرض ما ليس لله في السماء، فإن له الزوجة والولد ،وليس لله ذلك".(٢)

---

١) المعجم الوسيط مادة (وضؤ).

٢) ينظر : بحر الدموع ، صـ١٨٦.

إذن بدأت هنا تضيق الدلالة شيئًا فشيئًا حتى تريح السامع ؛ حين يقع في خلده أن المتكلم إنما يقصد هنا بالحق دلالة خاصة؛ إنه الموت، لأنه الحق في وقوعه وثبوته للكل الكائنات الحية، وقرب هذه الدلالة في التورية كلمة(أكره)مما يلائم المعنى البعيد ،فتكون التورية مبنية، فلا يعقل كراهة الحق المعجمي عند بشر مهما صغر أو كبر، وإنما دلالته المخصوصة والمقيدة. كما روعي في الكلمة الدلالة النحوية بوقوعها مفعولًا به، حتى تقع العين عليها جسمًا مرئيًا يقع عليه حدث الفعل وفعل الفاعل ؛ ويظهر أثر الفعل عليه ، فيتقبل عندها العقل فكرة الكراهية نظرًا للمفعول، خاصة وأن الفعل مضمر قلبي ، كما حلت الدلالة الصرفية مشكلة الديمومة والثبوت ؛إذ جاءت الكلمة مصدرًا لتتناسب مع الحدث فعلًا وزمنًا ووجودًا؛ فكل الناس على مدار الأزمان والأعمار تكره الموت. وتجلت الدلالة الصوتية في صوت الحاء الحلقي المرقق مما يتناسب مع الوضع البشري عند لحظة الموت وصوت الحشرجة، وصوت القاف المضعف انفجاري مفخم تفخيمًا يتناسب مع عظمة الموت وهيبته.

كما ضاقت دلالة الفتنة هنا في التعبير بعد اتساعها حتى خصت بمفهوم المال والولد، استنباطًا من القرآن الكريم الذي جعلهما فتنة في أكثر من موضع، وأيضًا قرب هذا المعنى كلمة(أحب) مما يلائم المعنى البعيد، فتكون التورية مبنية أيضًا كسابقتها، فلا يعقل محبة الفتنة للذات والنفس بمفهومها المعجمي؛ وإنما لها هنا دلالة خاصة بالسياق من حيث كانت الأموال والأولاد فتنة للناس في دينهم ودنياهم ومع ذلك يرغب فيهما جميع البشر. وعناية المتكلم بدلالة الكلمة النحوية ظهرت واضحة أيضا في إيرادها مفعولًا به أيضًا؛ حتى يتوطد في العقل وقوع الفعل عليها وقوع التعدي؛ وحتى يتعدى الفعل للمفعول تعدي الدلالة المعجمية إلى السياقية، فكما يتعدى الفعل الفاعل فيعمل في المفعول يتعدى القلب العقل ويحب فتنة المال والولد ، فلا توجد محبة(الفعل أحب) إلا ولابد أن يكون هناك محبوب، فيتعلق الذهن به ويتصل اتصال الفعل بالمفعول(أحبه) إنه فعل قلبي. وقد برع المتكلم في هذه المقابلة الحالية بين كراهة الموت ومحبة الدنيا.

وتلاقت الدلالة الصرفية ببناء الكلمة مصدرًا يشع بمقدار تمكن الصفة في الموصوف ورسوخها فيه حقيقة وأصالة وقوة ،عناية بالصفة وبالحدث دون الزمن، وكأنها تقع في كل زمن ، خاصة إذا أدركنا أن أصل الفتن يقع في جل مواقعه مختصًا بالمال والولد اللذين هما يستمران استمرار البشرية.

كما أشارت الدلالة الصوتية في صوت الفاء الشفوي المهموس على خفاء شأن المفتون ،وهو يحمل في طياته التناقض طبقًا لطبيعته ؛فهو في أصل وضعه يدل على الوهن والتشتت، مثل: فتر ، لكنه في صورته التمثيلية يدل على القطع والشق، مما يناسب وصفية المال والولد ووضعيتهما في حياة المفتون بهما ، أما صوت التاء فمهموس يلائم الإطار النفسي والوجداني للعاطفة الإنسانية ،وهو رقيق يناسب رقة العاطفة الغالبة في معاني الحب المكنونة للولد والمال . وحرف النون الدال على ظهور الشأن لعلم الجميع بهذه الفتنة وعمومها للبشرية.

ثم كانت التورية الثالثة الخاصة بالصلاة بغير وضوء ،إن الدلالة في الصلاة مخصوصة بالعبادة لكن تخصيص المخصص هنا هو اللافت للنظر؛ للتنبيه إلى فضل الصلاة على الرسول- ﷺ- وأهميتها في المنظور الإسلامي، حتى يطلق عليها دلالة دينية خاصة، فكما الصلاة علاقة ربانية بين العبد وربه كذلك شأن الصلاة على الرسول علاقة وجدانية تصل بين العبد وربه ، فيجعلها تخضع لمدلول الصلاة قيمة ومفردة ؛وحتى لا يستهان بها عملًا وأجرًا. وقد عني القائل بدلالة الكلمة النحوية والصرفية بصياغتها في صورة الفعل المضارع (أصلي)برفع الفعل المضارع رفعًا لشأن الفعل وأنه لا يقل في أهميته عن المدلول العام للكلمة(الصلاة لله)، وبناؤه الصرفي يدل على التجدد كرة بعد أخرى، حرصًا عليه ورعاية له، وهي دلالة تشعر بالمحافظة والاستمرارية تعظيمًا وتبجيلًا ، ثم الدلالة الصوتية لصوت الصاد مما يدل على الصلابة والشدة والقوة والفاعلية في الفعل المقوم به، كما أن طبيعته الصفيرية تعطيه قيمة دلالية للنقاء والصفاء مما يصلح معه هذا الصوت لمحاكاة الكثير من أصوات الناس والطبيعة وكأن الفاعل يتغنى في صلاته على الرسول كما تتغنى الطيور، وصوت اللام مما يدل على التماسك

والالتصاق من جهة المتكلم بالفعل. وصوت الياء صوت طويل، مما يوحي بامتداد الصفة مع امتداد الصوت بها، بما يؤكد تعلق المتكلم بالصلاة على الرسول تعلق امتداد الصوت ،والشدو به شدوًا لسانيًا وقلبيًا.

*** ومنه قول أبي العلاء بن سليمان الرقي من الرجز في الإبل :

صلب العصا **بالضرب** قد **دماها** *** تود لو أن الله قد **أفناها**(١)

لم يجد الشاعر أسلوبًا تهكميًا يساعده في إيصال معناه أفضل من التورية هنا في ثلاثة مواضع ،حين يصف راعيًا للإبل، فيعتقد السامع بدء التلقي الوصف بالشدة والقسوة التي ظهرت مظاهرها على الحيوان الضعيف، وأنه أراد منعها عن التشرد لما عرف من شكيمته وصلابته ، حين جاءت على الترتيب بالنحو التالي :

أولها : **الضرب** لفظ يطلق في اللغة معجميًا على معان عدة : يقال ضرب القلب تحرك ، وضرب الضرس أي اشتد وضرب الزمان أي مضى ، وضرب بين الناس أي أفسد بينهم ، وضرب آباط الأمور أي عرف بواطنها ، وضرب به الأرض ألقاه وضرب بيده أي أشار ، وهكذا تتسع دلالة الكلمة معجميًا لشتى معان تؤكد كلها معنى الألم خاصة بعد ذكر الملائم في التوريتين التاليتين اللتين تدعمان المعنى القريب بقوله : (دماها، أفناها) فيقع في نفس المتلقي الدلالة المعجمية للكلمات تباعًا دون فاصل ذهني أو مجال فكري ؛ من حيث كانت دماها في اللغة: تطلق على إسالة الدماء، أي تسبب في تدميتها من شدة الضرب لها، من الفعل (دمم) (٢): الشيء يدمه أي طلاه، ويقال : الدَّمام الحمرة التي تزين بها المرأة وجهها ،والدَّم معروف جمعه دماء وأصله دمى، والدَّمة شدة حر الرمل ، والتدم المرأة : ضربها ، وهكذا تدور الكلمة في اتساع معناها وتداولها حول معنى السيلان والشدة فيه ، ولا يزال يدعم تلك المعاني السابقة ورود كلمة (أفناها)

١) ينظر كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ج٢/ ٢٠٥.

٢) المعجم الوسيط مادة (دمم).

،والتي من أفنت الناقة ونحوها (١): قل لبنها، باستخراج جميع ما في ضرعها ،وقيل الأفن أن تحلب الناقة في غير وقت حلبها فيفسدها ذلك، والأفن :النقص ،وقيل :الأفان نبتة إذا يبست شوكت ، فيكون معناها الأذى، وأفن الطعام أعجب ظاهره ولا خير فيه، وهكذا يدور مضمونها المعجمي حول مفهوم النقص والفساد والتدرج فيه حتى الموت. مما يشير عندئذ إلى مذمة الراعي المنوط به ذلك الفعل.

لكن بعد تدبر وتأن في السياق تضيق هذه الدلالة –المتسعة لكل ما سبق من معان– شيئًا فشيئًا حتى يدرك السامع أن المقصود هو المداعبة والطرافة باستغلال طاقات الدلالة وإيحاءاتها المتعددة حين يستوعب أن المراد من المعنى في مضمره بخلاف مظهره ، من أن هذا الراعي رغم صلابته في وقفته بتلك العصا المحمولة لا يضرب إبله ضربًا مبرحًا حتى يدميها ،وإنما المراد **بالضرب** هنا ضرب الأرض أي السير فيها طولًا وعرضًا؛ كناية عن كثرة المراعي وتنوعها، وكثرة الترحال بها والسفر باستخدامها، والعناية بها في إطعامها والحرص على تغذيتها بما يبني جسمها ، مما ينقلنا إلى معنى ثان للتورية في كلمة (**دماها**) وأن هذه الإبل بسبب حسن صنيعه معها أصبحت في تمام صورتها كالدمية جمع دمى ، وهي الصورة المنقشة من الرخام والصنم ؛ كناية عن حسن صورتها وجمالها بسبب الإحسان في رعايتها، حتى يشعر الرائي بأنها أصبحت نموذجًا في الجمال المبهر يقاس عليه ويقتدى به– كما يقال في اللغات الأخرى مانيكان– ، وبالتالي ننتقل إلى التورية الثالثة والمراد بها : أنه يطعمها كل أنواع النبات، فلم يبخل عليها ، مما أدى إلى سمنتها ؛ حتى نصل إلى مفهوم كلمة **أفناها** وأنها : من أفنت الشجرة أي كانت ذات أفنان ينبت لها الفنا وهو عنب الثعلب، كناية عن تعدد السنام لها، وظهور اللحم عليها ؛ مما يؤكد حسن الرعاية والعمل بما يصلحها ويحسن أثره عليها.

---

١) القاموس المحيط ، مادة (أفن).

والشاعر دقيق التعبير عن الحال بأن قدم الإدماء على الإفناء فعلًا ووقوعًا حدثيًا ؛فما كان لهذه الدابة أن تتعدد سنامها قبل حسن رعايتها بالتغذية، ولذا روعيت أنواع الدلالة من قبل المتكلم حيث تشابكت الدلالة النحوية والصرفية في التورية الأولى(بالضرب) مجرورة بالحرف، شبه الجملة حال ،وباستعمال المصدر دون اسم الفاعل ؛إذ لم يقل (ضاربًا) وإنما جاءت الباء في النحو للدلالة على المصاحبة بمعنى (مع) ،إشارة للملازمة الكائنة بين الراعي وسيره في الأرض الواسعة بما تقتضيه طبيعة عمله ،أو للاستعانة إشارة إلى استعانته بالتحرك عبر البلاد الواسعة لتحقيق هدفه، مما استدعى وجود الباء نحويًا ودلاليًا ، ووقوع الجملة حالية من الناحية الوظيفية النحوية هنا للإشارة إلى ملازمتها لصاحب الحال وكأنها لا تفارقه ؛ مبالغة في المدح والتعب على دوابه، وجيء بالمصدر دلالة على تمكن صفة السفر وحب الترحال ورسوخها في المذكور، بما يدعم الدلالة النحوية السابقة ويثبتها، أما الدلالة الصوتية لحرف الضاد الدال على الغلبة ،وهو "شديد جهوري مطبق مفخم"([1]) فمما يناسب الفعل الواقع به ، وصوت الراء يدل على ظاهرة التحرك والترجيع والتكرار مما يتناسب مع حركة اليد الممسكة للعصا في كل ذلك الترحال ، و صوت الباء شفوي مجهور تتذبذب معه الأوتار، يدل على الاتساع والارتفاع في أنواع الرحلات .

أما الدلالة النحوية والصرفية في التورية الثانية والثالثة (دماها، أفناها)ببناء الفعل الماضي فيهما على الفتح ، واتصال المفعول به فيهما بالفعل ؛إذ لم يقل (أدمى منظرها وأفنى جسمها)، فدلالة على العلاقة الودية المترابطة بين هذا الراعي وهذه الدابة، واتصالهما المباشر اتصال الضمير بالفعل الذي لا يجوز انفصاله عنه، واختيار بنية الفعل الماضي مع الحرف (قد) دلالة على الحدوث والتجدد "فالفعل له دلالة الحقيقة وزمانها"([2])؛ مما يفيد ثبوت وتوكيد التسمين

---

١) العربية الفصحى دراسة في البناء اللغوي: هنري فليس ، تعريب وتحقيق د/ عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، المنيرة ،صـ٥١.

٢) معاني الأبنية في العربية ، صـ١٠.

والزيادة لهذه الدواب من قبل الفاعل ،وأن هذا الخلق من شيمته ووصفه في الفعلين ، أما الدلالة الصوتية لحرف الدال في كلمة (دماها) لما طال من الأثر؛ حتى يشير إلى ديمومة المعنى واستمراره. وأصلح الحروف للتعبير عن معاني الشدة والفعالية الماديتين . فليس في صوت الدال أي إيحاء ذوقي أو شمي أو شعوري ،لا يوحي إلا بالأحاسيس اللمسية ، وأما انفراج الشفتين أثناء خروج صوت الميم فهو يمثل الحدث الذي فيه التوسع والامتداد والانفراج بما يلائم حال النعمة الظاهرة عليها، وصوت الألف يدل على البعد المكاني الظاهر في جسم الدابة الذي فاق غيره، وصوت الهاء يدل على الهمس و اللين في التعامل معها، وفيه صفة الرخاوة لجريان الصوت فيه ،وكل ذلك مما يتناسب مع الوصف الكائن لها ، أما صوت الهمزة في كلمة (أفناها) فمن الثابت أنه من أعمق أصوات العربية في جهاز النطق وأنه شديد مجهور منفتح، بما يوحي بالاتساع في الجسم المادي اتساعًا شديدًا، وصوت الفاء يدل على الشق والقطع وأنها قد شقت وخرجت عن المعهود المألوف إلى عكسه في زيادة جسمها وجمالها، وصوت النون الدال على ظهور هذين الوصفين ظهورًا يتعدى الحدود.

وهكذا استغلت التورية العمق الدلالي بأنواعه حتى تحقق هدف المتكلم في التعمية والإغلاق حتى وصفها ابن الأثير بقوله :"ومن أحسن ما سمعت في هذا الباب قول أبي العلاء بن سليمان" ..."([1]).

١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ج٢/ ٢٠٥.

المبحث الخامس: التورية ومستواها الدلالي في مقام الذم والهجاء:

**** ومنه قول الصفدي من بحر السريع :

وصاحب لـــما أتاه الغنى تاه ونفس المرء طماحة

وقيل هل أبصرت منه يدا تشكرها قلت ولا **راحة**(١)

الشاعر هنا يروي موقفًا إنسانيًا وقع من صاحبه عنـــدما تبـــدلت أحوالـــه المادية من شظف العيش إلى رغده، فتغيرت النفـــوس البشـــرية فـــي طبائعهـــا وأخلاقها، كناية عن تقلب الصاحب وتبدل أحواله،(النذالة والخسة)وقد لجأ الشاعر للتورية في مقام الذم للكلمة المورية (راحة) حتى نتعايش معـــه شـــعورًا وألمًـــا وحزنًا على فوات معنى الكلمة، ونتدرج في دلالتها حتى نصل إلى القناعة بصدق المقول ، عندها نصل إلى مرحلة الاقتناع والقبول ، ومن هنا بدأت معجمية الكلمة في دلالتها على أول معنى من معانيها : الكف مما دون الأصابع، والجمع راحٍ ، وهو المتبادر إلى الذهن القريب ، بقرينة ذكر كلمة (اليد) في الشـــطر الأول مـــن البيت ،و لكون الكلمة في سياق النفي هنا كناية عن قلة الفضل والعطاء من جانب هذا الصديق ؛مما يومئ إلى بخله المادي، وهي صفة شخصية تتوقـــف عنـــدها المواقف الاجتماعية الإنسانية، وحتى يعرض على الذهن انعدام كرمـــه ومقـــدار بخله المالي ويستقر في وجدان المتلقي هذا المقدار ،وبعد استقرار هـــذه الدلالـــة يتدرج الذهن إلى معنى ثان هو الرائحة ،إذ يقال : راح الشيء : وجد رائحته(٢)، وهذا المعنى أيضًا يرمي إلى ندرة الشكر ؛لأنه في معرض النفي ، أي لم ينل منه حتى طيب ريحه أي كناية عن الأذى بالرائحة النتنة، أو عدم النظافة الشخصية؛ ثم لا يلبث أن ينتقل الذهن إلى دلالة ثالثة : ألا وهي معنى الرواح ، مـــن الفعـــل (روَّح) أي الرحمة والفرج مما يشيع من تعاضد الأصحاب وتوحدهم في المواقف، ومساندتهم عند الشدائد، وهذا المعنى أيضًا يؤيده كلمة(صاحب)، إذ من صـــفاته تقديم المساعدة والعون أيا كانت صورتهما معنوية أو مادية، أو تكون الكلمة من

١) ديوان صلاح الدين الصفدي : حاشية محي الدين ،دار الكتب القطرية ٢٠٠٨م .

٢) لسان العرب: ابن منظور الأفريقي، دار صادر بيروت، ط أولى، مادة (روح).

الرواح بمعنى العودة والإنابة(١)، فإذا ما انتهى الأمر إلى قبول هذه الدلالات المتعددة فجأة يتوارد المعنى البعيد من التورية ؛ ألا وهو أن يكون المراد بالدلالة السياقية للكلمة : ما هو ضد التعب بمعنى الارتياح والطمأنينة، كناية عن الهم وشقائه النفسي والعاطفي وحرمانه النزهة والتسلية ،وهذا أنسب بمقام الهجاء المكنون داخل صدر المتكلم من ذاك الصاحب الغادر المتقلب. إذ لم يكتف بالتعب الجسدي منه بل ضم إليه التعب النفسي وهو أكثر إيلامًا مما عداه.

وهكذا انتقلت التورية من عموم الدلالة إلى تخصيصها بما يتناسب مع السياق العام للكلام ، ومع حرص المتكلم على التناغم الدلالي السياقي النحوي والصرفي والصوتي؛ إذ وقعت الكلمة اسمًا لـ(لا) النافية للجنس، حتى تعم جنس المنفي ، والخبر محذوف ؛أي لا راحة موجودة، حتى تتعلق النفس وتتشبع من دلالة الكلمة وأصالتها من موقعها الإعرابي وأنه مقصود بها أن تستغرق الحيز العقلي كله، بهذا الحيز الفعلي للوجود والذكر، مع دلالة النفي لإزالة أي وهم لأثر منها مبالغة في الذم ، ثم تضامت الدلالة الصرفية بوقوع الكلمة مصدرًا ،دلالة على تمكن الصفة المنفية في المذموم ورسوخها فيه، وهذا في مقام الذم أدعى للتنفير وقبول المقول ، وأخيرًا كانت الدلالة الصوتية لحرف الراء الدال على ظاهرة التحرك وتكرر الفعل والترجيع ، فنتخيل معها مقدار المكرر من التعب ، ثم كان صوت الألف حرف المد الساكن ويتميز بالارتفاع والتصعد، ليمتد الزمن في الصوت والفعل ، فإذا وقف السامع عليها مجتمعة مع صوت الراء(را) مما يوحي بمعنى الرياء والسمعة ، أما صوت الحاء ففيه رخاوة تتناسب مع الموقف الرخو من صاحبه وعدم ثباته في إشارة واضحة إلى تقلبه وعدم ثباته.

****و من التورية في سياق الذم ، قول عمر بن أبي ربيعة من بحر الخفيف:

أيها المنكح **الثريا سهيلا** عمرك الله كيف يجتمعان(٢)

١)ينظر: القاموس المحيط مادة (روح).

٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ط دار القلم بيروت ،٢٠٠٩م، صـ٣٢٤.

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان

استغل عمر بن أبي ربيعة التورية أبدع استغلال حتى لا يقع تحت طائلة اللوم أو المقاضاة ،وقد استلهمها من الواقع العربي المعهود للنجوم الفلكية في كلمتي (الثريا وسهيلا) حتى يوهم السامع أنه يريد بهما النجمين المشهورين ، ثريا السماء والنجم المعروف بسهيل ،والثريا من منازل القمر الشامية: عنقود نجمي وهو أحد ألمع النجوم ، وقدماء العرب كانوا يتبركون به ويسحرون بمدى روعته ووضوحه، ومن معناه الذي يتدرج للذهن بتلقائية أيضًا معنى مجموعة الشموع أو المنارة المتعددة الأنوار تعلق في سقف المنزل ،إذ يطلق عليها أيضًا ثريا، إذن يتعلق الذهن بمعنى أن تكون هذه النجوم تعد منارة في مجموعتها الشمسية ومحط تعلق العيون والمشاهد لها، أما سهيل : فتصغير سهل ، ومن معناه الأرض الممتدة المستقيمة السطح لا تبلغ الهضبة ، والسهل كل شيء لين غير خشن ، وفي موضع الذم والعيب يوصف به للدلالة على الخسة والوضاعة ، "وقيل سهيل: كوكب لا يرى بخراسان ويرى بالعراق وأرض الحجاز،"(١) ،إلى هنا يقع في عقل المتلقي بمجرد سماعهما تلك الدلالة المعجمية وتستقر في الخيال لعدة ثوان، فكلاهما نجم في الأفق يمتدح الأول بعلو مكانته وعناية الناس به ،ويذم الثاني بدنو منزلته وإغفال الناس له، فهما يتفاوتان ، ثم لا يلبث المتلقي أن يدرك أن الدلالة هنا لها خصوصية معنى؛ حين يقف على كلمة (المنكح) إذ يستحيل نكاح النجمين ،فيدرك حينها أن المقصود من النجمين : المرأة التي تسمى بهذا العلم وهي ،"ثريا بنت علي بن عبد الله بن الحرث بن أمية الأصغر،"(٢)والثاني علم لرجل يدعى (سهيلا) ، بما يوحي باستبعاد واستهجان حدوث الحدث ، لما يعلم بأن سبب نظم البيتين أن سهيلا المذكور تزوج ثريا، وكان بينهما بون شاسع ،"فهي مشهورة في زمانها بالجمال ،وسهيل مشهور

١) معجم لسان العرب مادة (سهل).

٢) خزانة الأدب :مج٢/٢٤٩.

بالعكس"([1]).وكان أبوها زوجها برجل من أهل اليمن لا يتناسب معها منزلة فتمكن الشاعر من أن يوري بالنجمين عن الشخصين ليبلغ من الإنكار على من جمع بينهما ما أراد ،"وهي تورية مرشحة لقوله المنكح" ([2]).

وقد تضامت الدلالة بأنواعها في إخراج التورية بهذه الصورة البديعة ،فكانت الدلالة النحوية بوقوع الكلمتين مفعولا بهما، دلالة على سيطرة وتحكم الفاعل(المنكح : الأب الولي المتسلط على ابنته)في الفعل والمفعول، والفعل فيها فعل الجبر لأن فيه مشقة نفسية عليها ، وفي جعل الثريا المفعول الأول ثم جعل السهيل المفعول الثاني دلالة على تقدير المتكلم للأول وفضله على الثاني ،مما يؤكد رتبة المعنى من رتبة الكلمة وجودًا. ثم دلت الدلالة الصرفية لاسم العلم، بتصغير الكلمة ؛فيقال امرأة ثروى ،وتصغيرها (ثريا) والنجم لكثرة كواكبه مع ضيق المحل ([3]) وكأن عمر بن أبي ربيعة يشير إلى صغر سن الفتاة مع عظم شأنها وتعدد مزاياها وصفاتها وتكريمها، تدليلًا لها ولفتًا إلى إحساسه العميق بجمالها، واستمالة لقلبها، وفي مقابل هذا جاء تصغير اسم العلم (سهل) أيضًا تصغيرًا يوحي بتقليل الشأن ودنو المكانة والمنزلة ؛ مما يعد مقارنة خطابية دلالية باستعمال صيغة التصغير في الكلمتين مع تضاد الغرض والهدف فيهما .

أما الدلالة الصوتية لصوت الثاء، فيدل على الرقة والليونة والملمس الدافئ الوثير وهذا أمر تراه محسوسًا محصلًا من استبعاد الجمع بينها وبين ذاك الرجل، وصوت الراء يدخل في معظم الأعضاء التي تتصل بغيرها بمفاصل غضروفية مثل: الرأس، الرقبة، الركبة، الرسغ ...، وكأنه يوحي باتصاله بها اتصال الأعضاء ببعض ،كما يدل على تكرار وديمومة ثراء جمالها وحسبها ، والياء تدل على امتداد الصوت الطويل لامتداد الصفة والتركيز عليها ، بما يؤكد ثراءها في

---

١) الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرد، تح / محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ثالثة ١٩٩٧م ج٢/ صـ١٧٤،

٢) تحرير التحبير: ج٢ صـ٢٦٨ .

٣) ينظر القاموس المحيط مادة (ثرى).

الصفات الجمالية ثراء ممتدًا امتداد حرف الياء الصوتي، خاصة مع تضعيف الحرف والتنغيم فيه ، ويدعمه صوت الألف بما يتناسب مع البعد المكاني أو الزمني الأفقي أو الرأسي للمكانة والمنزلة سواء في الجمال أو النسب ،ولذا في المقابل للتورية الثانية كان صوت السين في كلمة (سهيل) دالًا على النقص والليونة، وصوت الهاء يدل على الاضطرابات والانفعالات النفسية وكل هذا يقود إلى القسوة ، واللام تدل على التماسك والالتصاق لهذه الصفات بما يؤكد تباعد وتقابل الوصفين للزوجين ، فكيف يجمع بينهما ولي الزواج بدون تكافؤ.

****ومن بحر الطويل قول بعض العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد بن حنبل ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة ثم إلى مذهب المالكي :

ومن مبلغ عني الوجيه رسالة *** وإن كانت لا تجدي لديه الرسائل (١)

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل *** و فارقته إذ أعوزتك المآكل

وعما قليل أنت لا شك صائر *** إلى **مالك** فافطن لما أنا قائل

إن التحيز المذهبي يدفع هذا القائل للتورية حرصًا على النصيحة أو خوفًا من السامع بدلالة كلمة (الوجيه)،من حيث كان المخاطب يتنقل بين المذاهب الفقهية كلها ،ولا يكاد يستقر على أحدها؛ مما أثار حفيظة المتكلم، واستجلب عندها كلمة (مالك) ،فكانت الكلمة في دلالتها المعجمية الظاهرية أول ما يسبق للذهن أنه يراد بها مالك ابن أنس صاحب المذهب الفقهي الشهير، خاصة وقد سبقها ملائم المعنى القريب في كلمتي (النعمان، ابن حنبل)،وحتى يقر في الذهن مقدار التخبط الفقهي لدى السامع الذي يترك هاتين القامتين الفقهيتين، ثم يتدرج الفكر مع الكلمة واتساع مضامينها إلى معنى ذي سلطان وصاحب ملك ، من ملك يملك دلالة على التمكن والاستيلاء ، كناية عن تملك الهوى وغلبته عليه، إذ أصبح مسيطرًا عليه ، ثم يتدرج التفكير إلى معنى مالك الحزين : "طائر مائي كبير يتغذى على الأسماك، يجلس بقرب المياه والمنابع فإذا جفت حزن على جفافها

١) ينظر كتاب المثل السائر : ج/ ٢صـ٢٠٥.

وبقي حزينا"([1])،فتكون الكلمة كناية عن ملازمة الحزن والندم له بعد مفارقته لمذهب ابن حنبل، وفيها معنى التأنيب واللوم، بل وتحتمل الكلمة أيضًا هنا معنى المال المضاف إلى ضمير المخاطب(مال + كاف الخطاب) تعريضًا بركونه واعتماده إلى المال الوفير لديه وسطوته التي أغفلته عن الجادة والصواب، ومن ملائماته كلمة (الوجيه)، ثم لا تلبث أن تضيق الدلالة بعد ذلك الاتساع للمضمون العام إلى خصوصية مفهوم ؛حتى يعلم أنما المراد منها : مالك خازن النار من الملائكة ،ومن ملائمات هذا المعنى كلمة(صائر) أي تموت متوجها إلى النار، وفيها تعريض بالذنب ،واستحقاق العقوبة عليه وكأنه ارتكب كبيرة ظاهرة، وفيها تهديد ووعيد حتى يخاف قبل موته . ورغم اعتراضي على المتكلم إذ نصب من نفسه مفتيًا يوجب النار للمخاطب ؛ كما ساءني مقدار الاستهانة والتقليل من شأن المذهب المالكي، لكن الحس البلاغي يدفع بجمال التورية هنا ولطفها رغم ما سبق.

وعناية المتكلم بسائر صنوف الدلالة في الكلمة المورية بدءًا من الدلالة النحوية؛ بجرها بحرف الجر(إلى) الذي يفيد انتهاء الغاية في الزمان أو المكان ،وكأن جهنم غاية المخاطب المرجوة التي يصبو إليها زمنًا مستقبليًا ومكانًا معيشيًا، والدلالة الصرفية لاسم الفاعل ، الدال على ثبوت الوصف بالنسبة للفعل، وقد تدل على النسب إلى الشيء "كقولهم لذي الدرع: دارع"([2]) وكأنه يقول بهذه الصيغة الصرفية: أنت منسوب لأهل النار(مالكي المكان)، ثم الدلالة الصوتية لحرف الميم وانفراج الشفتين أثناء خروج صوت الميم مما يمثل الحدث الذي فيه التوسع والامتداد والانفراج بما يلائم حال التهديد والوعيد بجهنم ، وصوت الألف الدال على البعد المكاني المناسب فيها، وصوت اللام الدال على الملازمة، ثم صوت الكاف الدال على شيء من الحرارة والقوة والضخامة والامتلاء. ثم صوت

---

١) المعجم الوسيط مادة (ملك).

٢) المقتضب: ج٣/١٦٣.

التنوين المصاحب للجر وكأنه جرس تنبيهي إلى مجمل أصوات الكلمة تهويلًا وتنغيمًا يناسب الحدث والمحدث.

وأرى أن كلمة الوجيه أيضًا هنا من قبيل التورية إذ هي في ظاهرها المعجمي من الوجاهة، من وجِه أي سيد القوم ذو القيمة وصاحب الجاه والسلطان، وهذا المعنى أسبق للذهن، لكن يتسع المعنى حتى يشمل الوجيه : "الجنين إذا خرجت يداه من الرحم أولا،"(١) فتكون الكلمة كناية عن المخالفة للمعهود الجماعي وفيها معنى الذم ، وكأنه بتحوله عن مذهب ابن حنبل يتعرض للهلاك كما يتعرض الجنين الذي يخرج للدنيا بيديه وليس برأسه؛ وهذه علامة السلامة دون تلك، ثم بعد هذا التدرج الدلالي تضيق الدلالة في الذهن حين يستيقن السامع أن الكلمة من وَجَه بفتح الواو والجيم، أي وجه وجهه نحو شيء : أي تحول عنه إلى غيره فتكون صيغة مبالغة دلالة على كثرة تحوله من مذهب إلى آخر وتردده في الانتساب إليه.

ودلالة الموقع الرتبي للكلمة(الدلالة النحوية) بوقوعها مفعولا به توحي بضرورة حاجته إلى حدث وفاعل مؤثرين فيه؛ (من مبلغ عني الوجيه)،في إشارة إلى حاجته إلى النصح والتوجيه ، ثم كانت الدلالة الصرفية ببناء الكلمة على صيغة الصفة المشبهة حتى تدل على الثبوت ، فتدل على أن الوصف ثابت أو كالثابت ،على وزن (فعيل) بمعنى مفعول مما يعني أن هناك فاعلًا قام بعمل في حال معينة ، فيكون من الفعل المبني للمجهول (وُجِهَ)ولكنه أكثر منه وبالغ في فعله.

ثم الدلالة الصوتية لحرف الواو الدال على البعد الأفقي في التحول ومقدار الفعل يمتد مع امتداد الصوت به ، وربما تدل على الألم ، وصوت الجيم من الحروف الشجرية الدال على الشدة في الصفة بما يتناسب مع ذلك البعد الوصفي للصوت، وصوت الياء الدال على السقوط والتدني ، وصوت الهاء الدال على الاضطرابات والانفعالات. وكأني به يقول بلسان حاله : الوجيع لا الوجيه.

---

١) معجم لسان العرب مادة (وجه).

***ومنه قول ابن نباته المصري من بحر البسيط يذم الهجر من محبوبته ويصفها بالقساوة :

أودت فعالك يا أسما بأحشـــائي *** وآحيرتي بين أفعـــال وأســماء

إن كان قلبك **صخراً** من قساوته *** فإن طرف المعنى **طرف خنساء**(١)

يخاطب الشاعر محبوبته فيورد التورية في أكثر من موضع حرصًا على علاقته بها وطلبًا لودها ، فيهجو جفاءها ،وجاءت التورية في كلمة(صخر) ومعناها القريب : الاسم العلم المخصوص بصخر بن عمرو، والذي هو أخو الخنساء حينما تغنت بذكره ورثائه في شعرها ، وتلك الدلالة الظاهرية أيدها وقربها للذهن ذكر كلمة(خنساء) بعدها- وكلاهما يؤيد المعنى القريب للآخر- ،إذ يقترن في الخيال قصتهما المعروفة ، فيعتقد السامع أن الشاعر يشبه علم الناس بقساوتها وذيوع ذلك ذيوع اسم صخر على الألسنة والرواة، لكثرة التداول والانتشار، ويؤيده التشبيه التالي في الشطر الثاني من البيت(فإن طرف المعنى طرف خنساء) ، فإذا استقرت النفس عليه ، تبدأ تنتقل في روية وبتلقائية إلى المعنى المراد من الكلمة، حتى ترضى به وهو: الحجر العظيم الصلب، ويؤيده كلمة القلب قبله والوصف الصريح بعده بالقساوة ، بما يركن النفس إلى هذا المعنى الأخير، ثم لا يكتفي الشاعر بهذه التورية بل يعقبها بالتورية الثانية في كلمة(طرف خنساء) فالمعنى القريب: الخنساء الشاعرة ، لسبق تقدمته بذكر صخر ،فأول ما يسبق للذهن هنا هو الخنساء المعروفة، وأنه يشبه طرف معناه بطرف الخنساء؛ ثم لا يلبث أن يتوارد على الذهن معنى آخر من خنس الطريق: توارى عنه و تأخر ، ويخنس بهم يغيب عنهم، وهذا المعنى يؤيده حديثه عن قساوة قلبها ، ثم يتدرج ليحتمل المعنى مفهومًا معجميًا آخر : "الخناس داء يصيب الزرع فلا يطول"(٢). فيكون أراد تشبيه أثر غيابها وبُعدها عنه بالداء الذي يصيب النبات فيؤدي إلى هلاكه، وهنا ترضى النفس بهذا المعنى مفهومًا أيضًا

١) ديوان ابن نباته المصري ،صـ٢٥٨.

٢) لسان العرب مادة (خنس) .

لأثر الهجر عليه ؛ ولكنه يتدرج مرة أخرى في الدلالة حتى يقنع السامع بأنه إنما أراد عين البقر، وهي عين كثرة الدموع من خنساء مؤنث أخنس ،وهو صفة عربية للبقرة الوحشية التي انخفض وسط أنفها وارتفع طرفه ،ويوصف بها الظبي كذلك، أي جانب معناه للمقول السابق يشبه عين البقر الوحشي الغزير الدموع، كناية عن إخفاء الحزن وأن استشعار الألم من الكلام كاستشعار الدموع من الحيوان. وأن لكلامه جانبًا إيجابيًا لا يظهر–ألا وهو حرصه على حبها– وجانبًا سلبيًا يبدو للعيان ألا وهو ذم جفائها وهجرها ،وتلك هي الدلالة السياقية للكلمة.

وقد عني الشاعر بالدلالة النحوية لكلمتي التورية (صخر، خنساء) ففي الأولى وقعت الكلمة خبرًا للفعل الناسخ (كان) حتى يقف السامع عليه ويكتفي به معنى ووصفًا للمبتدأ ، وحتى يتحقق دلاليًا معنى التشبيه البليغ؛ وكأنه يقول : إن كان قلبك كالصخر، مساويًا في الصفة ومتحدًا معه في الفعل ،فالموقع الرتبي للكلمة منح دلالة خاصة تضيع لو حدث تغيير في هذا الترتيب ، فلو قيل : صخر قلبك ، لأصبحت الجملة مقلوبة المعنى بالتشبيه لإبراز بلوغ القسوة مبلغًا تصبح فيه المحبوبة أصلًا والصخور فيه فرعًا ؛ وهذا يجافي التودد وطلب القرب لما فيه من مبالغة الذم ؛ لذا روعيت الهندسة التركيبية للجملة هنا بما كان في التركيب الأول .أما التورية الثانية(طرف خنساء) فقد وقعت الكلمة فيها مضافة (للطرف) الواقع خبرًا لحرف التوكيد (إن)؛ دلالة على التلازم بينهما وتخصيص المضاف بالمضاف إليه ونسبته إليها، تحديدًا دقيقًا للمعنى، أما لو قيل : طرف المعنى كخنساء ،فقدنا ذا التحديد الدقيق في التشبيه، وتتضافر الدلالة الصرفية مع الدلالة النحوية في الكلمتين الموريتين هنا لتحقيق حدود الكلمة بدقة؛ فجاءت مصدرًا مبالغة في تمكن الصفة(صخر) ورسوخها في المخاطب رسوخًا يصعب معه توقع التغيير أو يندر ، والثانية(خنساء) صيغت صفة مشبهة ،مبالغة في الوصف بها وكأنها أصبحت سجية في الموصوف لتوكيد أثر الألم عليه، وهذا

الوزن غالبًا ما يدل على عيب أو لون ،مما يناسب لون العين التي تذرف الدموع حزنًا وفراقًا وألمًا.

أما الدلالة الصوتية لحرف الصاد في كلمة(صخر) ؛ فالصاد يدل على الصلابة والشدة ، وطبيعته الصفيرية تعطيه قيمة دلالية مما يصلح معه هذا الصوت، أما صوت الخاء ففيه همس ورخاوة مما يكشف عن خجله المعنوي، ثم اجتماعه مع الصاد (صخ) مما يدل على صوت الطرق من ضرب الصلب بالصلب، ثم صوت الراء الدال على التكرر والتحرك. وصوت الخاء في كلمة (خنساء) واجتماعه مع النون(خن) الدال على الظهور ، أي خرج صوته من أنفه، ثم صوت السين للسعة والبسط بلا تخصص، وللحركة والطلب صوت "المتماسك النقي يوحي بإحساس لمسي بين النعومة والملاسة ،وبإحساس بصري من الانزلاق والامتداد ،وبإحساس سمعي هو أقرب للصفير"(١) ، وصوت الألف مع الهمزة يدل على البعد المكاني للصفة.

ومما زاد من عناية الشاعر بالدلالة الصوتية وجود الجناس بين كلمتي (أسما، أسماء) فالأولى: اسم محبوبته، كما يجوز أن تكون الكلمة أفعل تفضيل من سمو ؛ من العلو والرفعة والسماء من كل شيء أعلاه ، فتكون الكلمة معبرة عن منزلتها العالية في نفسه، أما الثانية فهي بمعنى القسم الأول من أقسام علم النحو.

*** وقول شمس الدين الحكيم الكحال :

يا سائلي عن حرفتي في الورى *** وصنعتي فيهم وإفلاسي(٢)

ما حال من درهم إنفاقه *** يأخذه من **أعين** الناس

يبدو من ظاهر التورية مقدار جمالها وبراعة إيحائها،فهي توحي بالذم والهجاء في ظاهرها ،وسيظل معنا هذا المفهوم مصاحبًا حتى نصل إلى المعنى السياقي النهائي للتورية ،فكلمة (أعين) تشترك معجميًا في معان مختلفة منها :

---

١) خصائص الحروف العربية : صـ ١١١.

٢) خزانة الأدب وغاية الأرب :مح٢/٢٤٥

عين الشيء ، نفسه، كما يقال أنفقت المال عينه، وكأن الشاعر يقول إنفاقي من الناس أنفسهم ، أو تكون الكلمة كناية عن الكثرة إذ يقال أيضًا هو أعين : الذي عظم سواد عينه واتسع جمع عين مؤنث عيناء، أي يأخذه من السواد الأعظم من الناس ، وتحتمل من معناها المعجمي : العين ،التي هي ضرب من الدنانير والنقد المالي، كناية تفوقه في مهنته وبراعته التي تجعله يتعامل مع أغنياء القوم وعليتهم الذين يملكون ضربًا خاصًا من الدنانير يسمى العين ،والتي تحصل منها على بعض الدراهم فقط ، ثم تتسع الكلمة حتى تحتمل أن يراد بها الحسد والضيق وهو المعنى القريب المورى به ،وقد تقدم لازمه علة جهة الترشيح وهو درهم الإنفاق؛ لأنه من لوازم الحسد، أي تظن الناس به الغنى حتى يبلغ منهم الحسد عليه مبلغًا ،أو شعورهم بالغصب والممانعة عند طلب أجره منهم يؤدي بهم إلى حسده والضيق منه، وبعد كل هذه الاحتمالات الدلالية تضيق الدلالة حتى تصل إلى الدلالة السياقية المقصودة؛ وأنه يراد بها العيون التي يلاطفها ويداويها بالكحل، من حيث كانت مهنته وصنعته التي يقتات منها هي تجميل العيون بالكحل ومداواة آلامها ،فهو كحال ، أو طبيب كما قيل ، فتكون الكلمة كناية عن مهنته العملية التي يكتسب منها لقمة العيش، وأنه رغم براعته فيها لم ينل حظه المادي منها، مما لا يتناسب مع إنفاقه، وهذا هو المعنى المورى عنه.

ويعنى الشاعر مع تلك الدلالة السياقية بالدلالة النحوية بوقوع كلمة التورية مجرورة بحرف الجر(من) التبعيضية دلالة على التلازم المفهوم من علاقة التلازم بين الجار بالمجرور، ودلالة على تلازم رزقه بالعيون تلازمًا وجوديًا وتعلق اللازم بالملزوم . أو تكون (من) بمعنى الباء للدلالة على اتصال رزقه بالعيون اتصال السبب بالمسبب ، أي اشتغاله بها سبب الرزق ، ثم كانت الإضافة الدالة على التخصيص لتحدد نوعية الأعين بدقة ولتحقيق معرفة حدود تلك الكلمة، إذ لو قيل: يأخذه من الأعين ، لكانت شمولية الجنس عامة للاستغراق الكلي فيها ، وهذا لم يكن في واقع الحدث. أما الوزن الصرفي فله دلالته هنا ،إذ لو قال: عيون الناس ، بصيغة جمع الكثرة لم تحتمل الكلمة كل المعاني السابقة ،ولفهم منها

اشتغاله سقاء أو حمالًا للماء ،وهذا مخالف للمراد من التورية ،أما أعين فجمع قلة- جمع القلة يدل على عدد لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد عن عشرة-، فوزنه في البيت الشعري يشير دلاليًا إلى المضمون النهائي للسياق في التورية ،وقد وردت في القرآن الكريم في اثنتين وعشرين موضعًا بمعنى واحد هو العين الباصرة ،بينما وردت العيون في عشرة مواضع بمعنى عين الماء، الأمر الذي يؤكد دقة لغة القرآن.

والدلالة الصوتية لحرف الهمزة الشديدة المجهورة الانفجارية وهو صوت يوحي بالبروز والنتوء لإظهار فعالية السيلان في صورة مرئية للعين التي يقوم بتصنيع الكحل لها ،ثم صوت العين المتوسطة المجهورة المنفتحة تستخدم للدلالة على الإشراق والظهور، مما يناسب جمال العيون المكتحلة واتساعها، واجتماع الصوتين الحلقيين (الهمزة والعين)، للفت انتباه السامع ،ثم صوت الياء من الحروف الجوفية المجهورة الرخوة دلالة على الإلصاق ، وارتباطه بتلك العيون ، وصوت النون يدل على معنى الظهور والشيوع المناسبين للفعل.

المبحث السادس : التورية ومستواها الدلالي في مقام العذاب

وهو مقام تتجلى فيه قدرة الله على خلقه الكافرين أو العاصين .

*** ومنه قوله تعالى﴿ فَالْيَوْمَ **نُنَجِّيكَ** بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾(١)

وردت التورية القرآنية في سياق الحديث عن هلاك فرعون بالغرق وما أتبع هذا من أحداث، فكانت كلمة(ننجيك) وهي تحتمل من معانيها المعجمية معاني عدة ؛فأول ما يعلق بالذهن عند قراءة الآية معنى: نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ، ولكن بعد أن تغرق"(٢)، فتكون الكلمة مشتقة من النجاة. وأن هذا وعد له بالنجاة على سبيل التهكم ،....كأنه قيل له ننجيك لكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك ، ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال : نعتقك ولكن بعد الموت ، ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت. وقد تكون من نجا الرجل : ما ألقى عنه من اللباس، دلالة على المهانة والمذلة، وقد قال به الزجاج في تفسيره :"معناه نلقيك عريانًا ؛لتكون لمن خلفك عبرة"(٣). كما يحتمل أن تكون من : نجوت جلد البعير عنه، إذا سلخته وكشطته، أي نزع عنه درعه "التي كانت مصنوعة من ذهب يعرف بها"(٤)، وفيها من السلب والإضعاف بعدما كان في كامل سلاحه وجبروته واستقوائه، فتكون كناية عن عجزه وضعفه ، ثم ها هي تحتمل المعنى البعيد وهو أن تكون من النجوة وهي الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض(٥)، أي نجعلك فوق نجوة من الأرض فنظهرك، أو نلقيك بنجوة من الأرض لتعرف(٦) ؛وليراك بنو إسرائيل

---

١) سورة يونس آية(٩٢).

٢) التفسير الكبير :ج١٧/٢٩٨.

٣) معاني القرآن وإعرابه :إبراهيم الزجاج، تح /عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب بيروت، ط أولى ، ١٩٨٨م ،ج٣/ ٣٢.

٤) حاشية البيضاوي ،دار الفكر ، بيروت ، ج٢/٢١٣.

٥) التفسير الكبير :ج١٧/٢٩٨.

٦) الكشاف : ج٢صـ٣٥٠.

والناس من بعدهم . وأعتقد –والله أعلى وأعلم– أن هذا المعنى مما يتناسب أكثر مع كلمة(خلفك) إذا كانت يقصد منها الخليفة له من الملوك والفراعين ؛ حتى يعتبروا ويتعظوا من منظر الجسد الملقى فوق نجوة، وإنما كان ذلك آية لأنه كان يدعي أنه إله وكان يعبده قومه فبين الله أمره وعجزه البشري، ليكون عبرة ونكالًا عن الطغيان، فكما كان في الدنيا فوق كرسي الملك مفاخرًا به ؛ فها هو ملقى على مكان مرتفع من الأرض لا يملك حركة حياة فأين الملك حينئذ. وهكذا تدرجت التورية وطافت بنا في صورة معانيها المعجمية حتى انتهت إلى سياقها المنشود منها.

هذا وقد تضامت سائر صنوف الدلالة مع بعضها البعض فكانت الدلالة الصرفية والنحوية؛ في صيغة الفعل المضارع المضعف العين دلالة على المبالغة والتمام في الفعل المنسوب لضمير الله المتكلم الدال على القدرة والتمكن والإجلال والتعظيم ،والله هو المستحق لكمال العظمة والإجلال، والذي يتناسب من جهة أخرى مع سياق التهديد الوعيد بعدما كان من ادعاء فرعون الربوبية فيما مضى من زمان، فدلالة التضعيف في الفعل تناسب دلالة قوة الفاعل التي لا يحدها وصف ، ثم كانت الصيغة الصرفية في المضارعة الدالة على حكاية الحال والحاضر وزمن وقوع الحدث المحكي عنه والمقول فيه، وكأن الله يخاطب فرعون الآن، والحدث مشاهد أمامنا نراه مباشرًا وقت حدوثه، إذ لم يقل : نجيناك ؛ حتى نعايش الحدث المحكي لحظة بلحظة، واتصال الضمير(المفعول به) بالفعل مما يؤكد سيطرة الفاعل على المفعول وقدرته عليه.

أما الدلالة الصوتية في تكرار النون الدال على شدة الظهور ، وصوت الجيم من الحروف الشجرية الدال على الشدة في الصفة بما يتناسب مع ذلك البعد الوصفي للنجاة ،"نظرًا لشدة تدافع النفس أثناء خروجها وما يحدثه من ارتجاج في مساحة واسعة من سقف الحنك توحي بالشدة والقوة والمتانة"(١)، ويوحي بالضخامة كإحساس بصري وبشيء من الطراوة كإحساس لمسي ،وهذا ينسجم

١) خصائص الحروف العربية : صـ ١٠٥.

مع ما يوحيه منظر الغرق للجسم ، وصوت الياء الطويل، مما يوحي بامتداد الصفة مع امتداد الصوت بها دلالة على مد الفعل مدا يتناسب مع الزمن الواقع له، ألوف السنين وجسده شاهد عليه، وتعطينا صورة الشيء العميق دلالة وصفية ودلالة كيفية لصورة الجسم ، وصوت الكاف يعطي معنى الاحتواء، والتلفظ به بصوت عال وبشيء من التفخيم يدل على الضخامة والتجميع والامتلاء مناسبة للحدث.

وكلمة (خلف) تحتمل أيضًا معاني عدة ؛فأول ما يبادر الذهن من معانيها ، معنى من جاء وراءه وصار مكانه بمعنى خليفته ، من الملوك والفراعنة ، وتحتمل أن تكون بمعنى أعرض يقال: خلف عن المنكر أعرض، أو "تكون بمعنى الحمق من خلف الولد (١): حمق"، أي تكون أنت للحمقى المعرضين عن الحق بينة ودليلًا على صدق رسالة موسى –عليه السلام– ، ثم تحتمل الكلمة في معناها المعجمي معنى الخلف : الولد الصالح ، حتى تصل بنا إلى معنى المخالفة ، أي المخالفين لك من بني إسرائيل، حتى يوقنوا بالله وقدرته المعجزة التي أنقذتهم في أحلك الشدائد ، وهكذا أظنها من باب التوجيه الذي يحتمل المعنيين (الكافرين المعرضين والمؤمنين المقبلين)وهو ما يناسب معنى الآية والبينة على حد سواء وهو من بلاغة بمكان.

****ومنه قوله تعالى ﴿كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾(٢)

جاءت التورية في الكلمة القرآنية(قائلون) في سياق التذكير بتكثير عدد القرى المهلكة بسبب كفرها وجحودها، ولتهديد القوم بالمصير نفسه إن لم يعتبروا بماضي الأسلاف، والقول والقيل واحد في الجذر اللغوي للكلمة (٣)، وله معان عدة من الناحية المعجمية تحتملها التورية بداية حتى تتدرج في النهاية إلى

١) القاموس المحيط مادة (خلف).

٢) سورة الأعراف آية رقم (٤).

٣) المعجم الوسيط مادة (قول).

المعنى السياقي النهائي في التركيب ،إذ أول ما يعلق بالسامع أو القارئ عند التلاوة معنى القول ، دلالة على نشاطهم وحركتهم البشرية ،فينصرف إليه الذهن مباشرة ، لتكون المباغتة والمفاجأة بالعذاب في وقت الانشغال بالأعمال، ثم تتدرج الكلمة بنا في معناها المعجمي حتى تصل إلى المراد السياقي لمعنى القائلة، وأنها من القيلولة: النوم في نصف النهار، فيكون العذاب واقعًا عليهم وقت القيلولة، فتكون التورية محددة للتوقيت الزمني للعذاب، إذ لم يقل التعبير القرآني (نهارًا)على عموم أوقاته، وإنما خصت زمن القيلولة بالذكر، للدقة في التحديد الزمني وحتى يتم التناسب المعنوي في الجمع بين السكون والراحة والتي أشارت إليه كلمة(بياتًا) –التي من ملائمات المعنى البعيد– ولأن العذاب في وقت الراحة أشد وأغلظ ،و لئلا يتحرزوا منه ويهربوا عنه ، "لاستسلام النائم وتحرز المستيقظ"([1]).

"وأو هنا للتنويع أي جاء مرة ليلاً كقوم لوط، ومرة وقت القيلولة كقوم شعيب وهذا فيه نشر لما لفّ"([2]) وهكذا تدرج الذهن من معنى القول إلى معنى القيلولة ،وفي انتقاله بينهما زمن يستدعيه التدبر حتى يدرك العقل مدى الغفلة التي يعيشها الغافلون ،ومدى انشغالهم بحركة الحياة، التي سوف تسلب منهم في غضون هذا الانشغال، والتورية هنا توضح مقدار السرعة بين الزمانين(زمن القول وزمن العذاب في القيلولة).

وكانت الدلالة النحوية لكلمة التورية من حيث وقعت الجملة –المكونة منها ومن الضمير المنفصل – حالًا (أو هم قائلون) في محل نصب معطوفة على قوله

---

١) تفسير الماوردى النكت والعيون : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج٢، صـ٢٠١.

٢) البحر المحيط : أبو حيان ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط أولى ١٤٢٢ هـ ،٢٠٠١ م ، ج٣/٢٦٧

(بياتا) ، فيكون المعنى : "فجاءها بأسنا بائتين أو قائلين"(١)، فتكون الحال للتنبيه على الهيئة المخصوصة بصاحب الحال حينئذ حتى يحذروها ويتجنبوها. وقيل في الجملة واو مضمرة والمعنى فجاءها بأسنا بياتا أو وهم قائلون، وأو لتصريف العذاب،أي مرة ليلًا ومرة نهارًا ،إلا أنهم استثقلوا الجمع بين حرفي العطف ، لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل. فتكون كلمة التورية خبرًا عن الوقت الذي أتاهم فيه بأس الله ، وعليه تكون الكلمة وقعت خبرًا للضمير، وعناية الدلالة بالخبر عناية الفائدة من المقول للتركيز على مضمونه الخبري.

أما الدلالة الصرفية لوزن التورية بصياغتها على وزن اسم الفاعل إثباتًا للوصف الكائن وأنه سيقع منهم وقوع الثبوت ، وتوكيد مقدار غفلتهم عند هذا الوقت المحدد لهم ، وهذا فيه من التوكيد ما فيه ، ثم الدلالة الصوتية لحرف القاف الدال على القطع والصدم الكائن لهم بالعذاب، وصوت الألف الدال على البعد المكاني أو الزمني لوقت القيلولة الكائن فيه العذاب وكأنه يمتد امتداد الصوت به ،واجتماعه مع صوت الهمزة الشديدة المجهورة دلالة على سعة الزمن والحدث القائم فيه الفعل ، وللدلالة على الجوفية وعلى ما هو وعاء للمعنى وعلى الصفة تصير طبعًا، وإن ظلت توحي للسامع مع ما سبق بالبروز لكونه وقتًا لظهور الناس في الشوارع والساحات المكانية، وصوت اللام الدال على التماسك والالتصاق سواء كان بمعنى القول أو القيلولة ،وصوت الواو الدال على البعد الأفقي للفعل ،يوحي بالانفعال المؤثر في الظواهر ،وأخيرًا صوت النون الدال على الظهور مما يناسب زمن النهار الذي يقع فيه الحدث.

**** ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾(٢)

تحكي الآية موقف نبي الله يونس بن متَى –عليه السلام– مع قومه وخروجه غضبان من كفرهم.

---

١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي ،دار الفكر ط أولى ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م، ج ١٨/٨.

٢) سورة الأنبياء آية (٨٧).

وقد كنت في مقتبل عمري كلما قرأت الآية أستبعد المعنى الظاهري للكلمة ؛ لوقوعها من نبي مع يقيني بصدق الخبر ؛ حتى تعلمت ووقفت على معنى التورية فيها.

وجاءت التورية في كلمة(نقدر) لتحريك العقل بالبحث والتفكير، وإثارة العاطفة باليقين، فكانت الكلمة المورية تحتمل معاني عدة ، أحدها: معنى التضييق: فظن أن لن نضيق طرقه ،ومنه قوله ﴿وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾(١)، وذلك لأن يونس عليه السلام ظن أنه مخير إن شاء أقام وإن شاء خرج ،وأنه تعالى لا يضيق عليه في اختياره ،وكان في المعلوم أن الصلاح في تأخر خروجه وهذا من الله تعالى ، بيان لما يجري مجرى العذر له من حيث خرج لا على تعمد المعصية لكن لظنه أن الأمر في خروجه موسع يجوز أن يقدم ويؤخر وكان الصلاح خلاف ذلك ، والثاني : فظن أن لن نحكم عليه بما حكمنا ،مأخوذ من القُدرة ، أي ظن أن لن نؤاخذه بخروجه من بين قومه دون إذن . والثالث: معناه لن نُقدِرَ عليه من العقوبة ما قَدَّرْنَا ، مأخوذ من القدر ، وهو الحكم والقضاء دون القدرة (٢)، أو من قدَّر بالتشديد من قياس الشيء بالشيء(٣) من التقدير، أو يكون معناه : فظن أن لن نقدر أي فظن أن لن نفعل لأن بين القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل أحدهما مجازاً عن الآخر(٤) . و قيل ظن معاوية رضي الله تعالى عنه أنه من القدرة فاستشكل ذلك إذ لا يظن أحد –فضلًا عن النبي عليه السلام –عدم قدرة الله تعالى عليه وفزع إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فأجابه بما ذكرناه أولًا ، وجوز أن يكون من القدرة وتكون مجازًا عن أعمالها ، "أي فظن أن لن نعمل قدرتنا

---

١) سورة الطلاق آية (٧).

٢) تفسير الماوردي ، ج ، ٤صـ ٤٦٦ .

٣) ينظر : القاموس المحيط مادة (قدر).

٤) التفسير الكبير، ج١٦٣/٢٢.

فيه"([1]).وأن يكون هذا من باب التمثيل بمعنى فكانت حالته ممثلة بحالة من ظن أن لن نقدر عليه في خروجه من قومه من غير انتظار لأمر الله تعالى.([2])

ويظل العقل مع تلك المعاني جميعًا حتى ينتقل إلى معنى الابتلاء الملازم للقدر، ويرتضي أن يكون من القدرة بمعنى الابتلاء، -ولا يجوز أن يكون محمولاً على العجز عن القدرة عليه - ولعل معنى الابتلاء هو الأنسب بالحال التي لحقت بنبي الله يونس - عليه وعلى نبينا أفضل صلاة وسلام - من معاناته في خروجه وركوبه السفينة ،وإلقائه في اليم ،والتقام الحوت له ومعاناته في بطن الحوت زمنًا، ثم إلهامه بالدعاء المأثور وخروجه من بطن الحوت، إن كل تلك الأحداث العظام هي من بلاء الله.

وتجلت الدلالة النحوية في وقوع الفعل منصوبًا ب(لن)، مما يرشح ويعزز معنى الابتلاء والاختبار للتورية في المستقبل القريب والتقوية والتعظيم في القدر والعناية في المستقبل البعيد المرتقب، و جاءت الصيغة الصرفية ممثلة في وزن الفعل المضارع الذي يعضد معنى الابتلاء وتجدد الفعل فيه مما هو ثابت في القصص القرآني، ثم الدلالة الصوتية لصوت القاف التي للمفاجأة تحدث صوتًا ويشعر بالمقاومة وهذان الوصفان يفضيان به إلى أحاسيس لمسية من القسوة والصلابة والشدة مما يناسب الألم والمعاناة التي حصلها يونس عليه السلام ،وإلى أحاسيس بصرية في تخيل صورة التقام الحوت ،وأحاسيس وسمعية تناسب ذكر يونس وتسبيحه لله .

وصوت الدال لما طال من الأثر يناسب المدة التي قضاها يونس في هذا الابتلاء ؛ فكان صوت الدال من أصلح الحروف للتعبير عن معاني الشدة والفعالية الماديتين، "وصوت الراء يدل في جل معانيه على التحرك و التكرار والترجيع بما يتوافق مع الخصائص الحركية له، وبما ينتمي أصلا إلى حاسة البصر" ([3])،ومن

---

١) روح المعاني - أبو الفضل الألوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،ج ١٧/ ٢١٨.

٢) التفسير الكبير، ج٢٢/١٦٣.

٣) خصائص الحروف : صـ٩١.

غرائب هذا الحرف أنه يدخل في معظم الألفاظ التي تدل معانيها على منابع الحرارة الأصلية التي كان العربي يتعامل معها في الطبيعة (سعر سقر نار أضرم...) مما يناسب معنى الغاضب الذي يحمل أيضًا مفهوم منبع الحرارة الداخلية للشعور. وهكذا تناسقت الدلالات كلها لترشح معنى مخصوصًا للتورية يقرب مدلولها لدى السامعين ويدلهم عليه.

الخاتمة وأهم نتائج الدراسة

– توكيد ارتباط البلاغة بعلم الدلالة وأنواعه، وأنهما لا ينفصلان عند التفكير في إيراد التورية أسلوبًا تعبيريًا ؛إذ تتسع الدلالات في التورية ثم تضيق تدريجيًا حتى تصل بالسامع إلى خصوصية معنى.

–دقة الفارق الدلالي بين التورية والجناس مما ألبس على بعض البلاغيين ؛ فنجدهم في بعض المؤلفات يستشهدون بشواهد خاصة بالجناس ويتم تصنيفها وتحليلها في باب التورية(كما هو واضح في بعض الكتب الجامعية المقررة) رغم تكرار الكلمة بمدلولين مختلفين في الجناس ،ورغم وقوع التورية في المشترك اللفظي دون تكرار.

– التماس فارق دلالي دقيق بين التورية والاستعارة ؛ مبني على دلالة المشابهة في الاستعارة وليس الدلالة المعجمية ،أما في التورية فالدلالة منعقدة على مستويات الدلالة ومراعاتها بدءا من المعجمية الحرفية للكلمة ثم وصولًا إلى الدلالة السياقية ، مما يدفع بالشواهد التي يغلب عليها علاقة المشابهة وليست من المشترك اللفظي المعجمي ، فعناية الاستعارة بمجاوزة المعنى المعجمي إلى آخر ، أما التورية فعنايتها بخصوص معنى للكلمة دون غيره مما تحتمل معجميًا.

–يغلب في الدلالة النحوية للكلمة المورية إيراد اللفظ في صورة اسمية وفي موقع الخبر أو الفاعل أو المضاف أو المجرور، عناية بالرتبة الوجودية للتركيب ومراعاة للعلاقات التركيبية الدلالية في كل حسب المراد الذهني للمتكلم ،وقلَّ ورود التورية في الفعل.

–عناية الدلالة الصرفية في التورية بالمصدر واسم الفاعل والصفة المشبهة لخصوصية كل في دلالته لتوطين المضمون المورى عنه عبر صيغ صرفية مناسبة لكل معنى فيها.

– استغلال التورية لكل طاقات الدلالة المعجمية الأولية في التعمية على السامع، ثم الاعتماد على فطنة السامع في الوصول للدلالة السياقية المعنية من اللفظة اعتمادًا على الحال أو المقال.

-تعدد ورود التورية في الشاهد الواحد مما يؤكد سعة دلالتها وإيحاءاتها في موضعها، بل ويؤكد قدرة المتكلم وتمكنه اللغوي من أدواته.

- ارتباط التورية في كثير من مواضعها بالدلالة البيانية (الكناية) حتى أطلقوا عليها مصطلح (المعاريض)؛ لتداولهما الستر والخفاء ثم الوضوح.

- قلة التورية في الحديث النبوي ؛ لتوكيد وضوح الدلالة النبوية تركيبًا ودلالة ، والتزامه صريح الدلالة؛ إلا لضرورة.

- استلهام التورية من البيئة المحيطة وتعبيرها عن مكنونات نفسية وشخصية وعقدية ، مثل تورية المتنبي عن شعره بالناظم ،لإحساسه العالي بذاته، وتورية أبي بكر عن الرسالة بهادي الطريق، ليقينه بالدعوة المحمدية ، وتورية عمر بن أبي ربيعة عن محبوبته بنجم الثريا ، لشعوره النفسي بعلو مكانتها وتفردها.

- يغلب في التورية الاتساع المعجمي حتى تحتمل ثلاثة معان أو أكثر ، لعموم الدلالة فيها ،بينما يقل تحديدها بأقل من ذلك ،كل حسب ما يقتضيه الحال.

- يكثر في الدلالة الصوتية للتورية استعمال صوت الراء كما في (نهر، راحة، عرفها، ثريا ، نقدر، صخر) والراء عند أهل اللغة يدل على ظاهرة التحرك وتكرر الفعل وديمومته بما يتناسب أيضًا مع المدلول العام للكلمة المورية والتركيز عليه بإظهار حركتها الصوتية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

-أدب الدين والدنيا :أبو الحسن الماوردي، دار المنهاج ، ط أولى ،٢٠١٣م .

-إغاثة الأمة بكشف الغمة : المقريزي ، تح/ د كرم حلمي فرحات ط أولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الهرم.

-بحر الدموع : أبو الفرج بن الجوزي ، ط أولى ٢٠١٢م ، المملكة الأردنية الهاشمية .

- التعريفات : علي بن محمد الجرجاني : ط الحلبي ١٩٣٨م .

- تفسير البحر المحيط :محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ،دار الكتب العلمية، بيروت – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م ،الطبعة : الأولى.

-التفسير الكبير : الرازي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م ،طبعة أولى .

-تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري الخوارزمي ، تح /عبد الرازق المهدي، ،دار النشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- تفسير الماوردى النكت والعيون : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري دار الكتب العلمية ، بيروت.

-خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي ، تح/ عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال بيروت ط أخيرة ،٢٠٠٤م .

- الخصائص : ابن جني ، تح/ عبد الحكيم محمد ،المكتبة التوفيقية .

-خصائص الحروف العربية : حسن عباس ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،١٩٩٨م.

- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تح/ محمود شاكر، مطبعة المدني، ط ثالثة ،١٩٩٢م.

-ديوان ابن سناء الملك : تح/ محمد إبراهيم نصر – حسين محمد نصار ، وزارة الثقافة المصرية دار الكاتب العربي ،١٩٦٩م .

- ديوان ابن نباتة المصري: تح/ ياسر محمد خير المقداد ،ط دار إحياء التراث العربي ،بيروت.
- ديوان حافظ إبراهيم : شرح/ أحمد أمين – أحمد الزين – إبراهيم الإبياري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٧م، ط ثالثة.
- ديوان صلاح الدين الصفدي : حاشية محي الدين ،دار الكتب القطرية ٢٠٠٨م .
- ديوان المتنبي : تح/ د عبد الوهاب عزام ، ط أولى ، لجنة التأليف والنشر.
- روضة الفصاحة: زين الدين الرازي، تح/ د أحمد النادي شعلة ط أولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢مدار الطباعة الحمدية.
-السيرة النبوية: ابن هشام ، المكتبة الإسلامية ،موقع الإسلام ويب .
-الطراز لأسرار البلاغة : يحي بن حمزة العلوي ، المكتبة العصرية بيروت ط أولى ،١٤٢٣ه.
- علم الدلالة : د/ أحمد مختار عمر ، دار عالم الكتب ،ط خامسة ١٩٩٨م .
- علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية : د/ فريد عوض حيدر ، مكتبة الآداب ، ٢٠٠٥م .
- علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق: فايز الداية ،دار الفكر العربي دمشق، ط ثانية، ١٩٩٦م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني ، المكتبة الإسلامية .
- قاموس الأسماء العربية والمعربة وتفسير معانيها : د/ حنا نصر الحتي ،دار الكتب العلمية بيروت، ط ثالثة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
-الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرد، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ثالثة ١٩٩٧م، دار الفكر العربي ،القاهرة.
- لسان العرب ابن منظور الأفريقي دار صادر بيروت ط أولى.
-لمع السراج : صلاح الدين الصفدي ، تح/ حسين عبد الهادي .دار الكتب العلمية ،٢٠١٧م.
-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :ابن الأثير، تح/ أحمد الحوفي ،وبدوي طبانة، دار نهضة مصر.

- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي : د/ رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي بالقاهرة. -المزهر في علوم اللغة: السيوطي ، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار التراث القاهرة ،ط ثالثة.
- معاني الأبنية في العربية : د/ فاضل صالح السامرائي ،دار عمار ،ط ثانية ٢٠٠٧م ،
-معاني القرآن وإعرابه :إبراهيم بن السري الزجاج، تح /عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب بيروت، ط أولى ، ١٩٨٨م.
-معترك الأقران في إعجاز القرآن : السيوطي ، دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ،١٩٨٨م.
-المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية ،الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني ، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- مقاييس اللغة :أحمد بن فارس، دار الفكر ،أكتوبر ٢٠٠٧م.
- المقتضب: أبو العباس المبرد ، ت/ حسن حمد ،دار الكتب العلمية بيروت ، ٢٠٠٠م .

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٢٨٣٦
٢-	Abstract	٢٨٣٧
٣-	المقدمة	٢٨٣٨
٤-	التمهيد: تعريف التورية والدلالة وأنواعها ومستوياتها	٢٨٤٠
٥-	المبحث الأول :التورية ومستواها الدلالي في الحديث عن الذات(فخراً ووصفاً)	٢٨٤٥
٦-	المبحث الثاني : التورية ومستواها الدلالي في مقام الخوف أو الحيل :	٢٨٦٠
٧-	المبحث الثالث : التورية ومستواها الدلالي في مقام المدح :	٢٨٦٨
٨-	المبحث الرابع : التورية ومستواها الدلالي في مقام الهزل والطرافة	٢٨٧٤
٩-	المبحث الخامس: التورية ومستواها الدلالي في مقام الذم والهجاء:	٢٨٨٧
١٠-	المبحث السادس : التورية ومستواها الدلالي في مقام العذاب	٢٨٩٩
١١-	الخاتمة وأهم نتائج الدراسة	٢٩٠٧
١٢-	المصادر والمراجع	٢٩٠٩
١٣-	فهرس الموضوعات	٢٩١٢

تم بحمد الله